ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

النهايات الدامية لبعض سلاطين المماليك

(٦٤٨ – ٩٢٣ / ١٢٥٠ – ١٥١٧)

هبة يوسف

أستاذ مساعد الآثار و التاريخ الإسلامي - كلية السياحة و الفنادق – جامعة حلوان

ملخص:

يتناول هذا البحث دراسة ظاهرة هامة سادت و انتشرت خلال العصر المملوكي وهي ظاهرة النهايات الدامية لبعض السلاطين، حيث حفل هذا العصر بشتى ألوان العنف و المؤامرات و التي بدأت تظهر علي مسرح الأحداث منذ نهاية العصر الأيوبي و بالتحديد منذ أن تولي تورانشاه ابن الصالح نجم الدين أيوب السلطنة لتصبح مؤامرة التخلص من بطشه وسطوته حلقة في سلسلة متصلة من الأحداث الدامية التي اشتهر بها هذا العصر حيث وصل عدد سلاطين المماليك الذين انتهت فترة حكمهم بصورة دامية إلى أربع عشرة سلطانا.

والحقيقة أن الأسباب المؤدية لهذه الظاهرة عديدة ومتنوعة و يأتي في مقدمتها طبيعة نشأة المماليك أنفسهم بالإضافة إلي الطبيعة العسكرية القاسية التي تربوا عليها. ومن بين هذه الأسباب نجد كذلك تمادى بعض السلاطين في تكبرهم و استعلائهم علي الأمراء بل و عقابهم بالسجن أو القتل بصورة مبالغ فيها في كثير من الأحيان، الأمر الذي جعلهم يضيقون بهم ذرعا ويقررون التخلص منهم.

و في بعض الأحيان كان تفضيل السلطان لطائفة بعينها من المماليك و محاباته لها على حساب الطوائف الأخرى و تفريق الرواتب و المثالات بصورة مجحفة أحد الأسباب المباشرة المؤدية لعدم رضاء الأمراء و العسكر، والتي عجلت بدورها في القضاء علي السلطان

و من بين هذه الأسباب نذكر أيضا الانتقام أو غيرة النساء و كيدهن كذلك صغر سن بعض السلاطين بصورة لا تمكنهم من أن يحسنوا التدبير في الأوقات الصعبة، أو طيشهم و لهوهم الزائد عن الحد و الذين اتخذهما الأمراء ذريعة للتخلص من السلطان.

خلاصة القول، فإن حالة الفوضى و الاضطراب التي عاشتها مصر خلال تلك الفترة بما تخللها من مؤامرات و فتن، و كذا تلك القسوة و الوحشية اللتين عرفتا عن المماليك كان لها شديد الأثر على زعزعة الاستقرار في البلاط السلطاني و هو ما أدى بطبيعة الحال إلى انتشار العديد من مظاهر العنف المختلفة و التي تجلت بصورة واضحة من خلال النهايات الدامية التي تعرض لها عدد ليس بالقليل من سلاطين المماليك.

2010 World Research Organization, All rights reserved

Key words : Fin, tragique, sultans, mamluks, Egypte.

Citation : Youssef. H... , "La fin tragique de quelques sultansmamluks",(2010), 16-2(12) 67 – 109.

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

يتناول هذا البحث دراسة ظاهرة هامة سادت و انتشرت زمن سلاطين المماليك (شأن بعض الأسر الحاكمة) وهي ظاهرة النهايات الدامية لبعض السلاطين، حيث حفل هذا العصر بشتى ألوان العنف و المؤامرات و التي بدأت تظهر علي مسرح الأحداث منذ نهاية العصر الأيوبي و بالتحديد منذ أن تولي تورانشاه ابن الصالح نجم الدين أيوب عرش السلطنة لتصبح مؤامرة التخلص من بطشه وسطوته حلقة في سلسلة متصلة من الأحداث الدرامية بل و الدامية التي اشتهر بها هذا العصر.

وعلي الرغم من تناول العديد من الدارسين لهذه الحقبة الهامة من تاريخ مصر الإسلامية بالدراسة و التحليل وعلي الرغم من تأكيدهم المستمر علي أن دولة المماليك كانت دائما ما تطبق مبدأ البقاء للأقوى مع عدم إيمانها بمبدأ الوراثة في الحكم ، بيد أنهم لم يتطرقوا إلي دراسة النهايات الدامية لبعض سلاطين المماليك بالشرح و التحليل، مما دفعني لتناول هذا الموضوع بالبحث لإلقاء المزيد من الضوء علي هذه الظاهرة التي عدت من السمات المميزة لتلك الفترة.

ترجع بداية الأحداث حين انتصر المماليك البحرية علي الصليبيين في المنصورة أولا ثم في فارسكور في ٦٤٨ / ١٢٥٠ و استطاعوا أن يبددوا مخاوف المسلمين و يحيوا فيهم روح الأمل والمقاومة مما أدي إلي ازدياد قوة شوكتهم لإحساسهم بأنهم أصحاب الفضل في إنقاذ البلاد من خطر داهم[1].

في تلك الأثناء وصل المعظم تورانشاه إلي مصر ليتسلم مقاليد الحكم بعد أن قامت زوجة أبيه شجر الدر باستدعائه من حصن كيفا بشمال العراق علي أثر وفاة أبيه الصالح نجم الدين أيوب[2] لينوب عنه في حكم البلاد. بيد أن تورانشاه الذي كان سلطانا جديدا يريد أن يستشعر سطوته

[1] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، بيروت، ١٩٨٤، ج ٥، ص ٤١٦ – ٤١٧؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٨٤، ط٢، ج ٥، ص ١٩٣؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفي زيادة، القاهرة، ١٩٣٤ – ١٩٧٢، ج ١/٢، ص ٣٥٢ - ٣٥٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، وزارة الثقافة – مصر، ج ٦، ص ٣٦٤ – ٣٦٨؛ الجبرتي، عجائب الآثار، بيروت، ج ١، ص ٢٨؛ عبد الرحمن الرافعي و سعيد عاشور، مصر في العصور الوسطي منذ الفتح العربي حتى الغزو العثماني، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٢٩؛ أحمد عبد الرازق، الجيش المصري في العصر المملوكي، القاهرة، ص ١٤؛ الرنوك الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٨-١٩؛ الفنون الإسلامية في العصرين الأيوبي و المملوكي، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٢٠-٢١

[2] ابن كثير، البداية و النهاية، بيروت، ج ١٣، ص ١٧٧؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج ٥، ص ١٩٢؛ ، الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط و محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، ١٤١٣ / ١٩٩٢، ج ٢٣، ص ١٧٨، ١٩٢ ؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٤١٣، ٤١٦؛ أحمد بن أبي جرادة، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، ج ٤، ص ١٨١١؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفي، بيروت، ١٤٢٠ / ٢٠٠٠، ج ٢٩، ص ١٤٧؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق علي محمد بن يعوض الله و عادل أحمد عبد الموجود، بيروت، ٢٠٠٠، ج ١، ص ٢٧١؛ الجبرتي، عجائب الآثار، ج ١، ص ٢٨

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

وخطورة منصبه ، وجد في المماليك البحرية حجر عثرة تعترض سلطانه المطلق، مما أدى إلي سوء العلاقة بين الطرفين منذ البداية[٣].

و حقيقة الأمر أن تورانشاه لم يكن رجل الساعة فقد جمع بين سوء الخلق و الجهل بشئون الحكم والسياسة حيث يروي لنا المقريزي أنه لم يكد يطمئن إلي هزيمة الصليبيين في المنصورة وفارسكور حتى أخذ في إبعاد رجال الدولة و تخلص من كل من خشي منافستهم له من أبناء بيته[٤].

و يذكر ابن تغري بردي نقلا عن العلامة شمس الدين يوسف بن قز أوغلي أن "تورانشاه كان فيه نوع خفة وكان إذا سكر يجمع الشموع ويضرب رءوسها بالسيف فيقطعها ويقول كذا أفعل بالبحرية يعني مماليك أبيه ثم يسمي مماليك أبيه بأسمائهم، كما وعد أقطاى أن يؤمره و لم يف له فاستوحش منه"[٥] و بعبارة أخرى " فتنكر له أقطاي و كتم الشر"[٦].

بل ذهب تورانشاه إلي أبعد من ذلك حين اتهم أرملة أبيه شجر الدر التي حافظت له علي العرش والملك، بأنها أخفت ثروة أبيه و أرسل إليها يهددها ويطلب منها المال و الجواهر فخافت منه وكاتبت المماليك فيه فاتفق الجميع عند ذلك علي قتله[٧].

وفي يوم السابع و العشرين من المحرم ٦٤٨ / أبريل ١٢٥٠، جلس تورانشاه علي السماط بفارسكور احتفالا بتخليص الأراضي المصرية من الصليبيين فضربه بعض مماليك أبيه البحرية وعلي رأسهم بيبرس البندقداري و قلاوون الألفي و أقطاي الجمدار بالسيوف فقطع بعض أصابعه فهرب تورانشاه إلي برج خشبي و أغلق أبوابه فأوقد المماليك النيران حول البرج ورموه بالنشاب فرمي السلطان بنفسه في النيل فلحقوا به وظلوا يضربونه بالسيوف حتى مات "جريحا غريقا محترقا" بعد مدة حكم لم تجاوز الإحدى و سبعين يوما[٨] و خلفته شجر الدر أم خليل[٩].

---

[٣] سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر و الشام، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٩؛ سعيد عاشور و آخرون، تاريخ مصر الإسلامية، سلسلة تاريخ المصريين، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٣٩٣؛ عبد الرحمن الرافعي و سعيد عاشور، مصر في العصور الوسطي، ص ٤٢٩؛ أحمد عبد الرازق، الجيش المصري، ص ٤٤ الرنوك الإسلامية، ص ١٩

[٤] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٤١٧؛ المقريزي، السلوك، ج/٢١، ص ٣٥٨؛ عبد الرحمن الرافعي و سعيد عاشور، مصر في العصور الوسطي، ص ٤٢٩؛ أحمد عبد الرازق، الجيش المصري ، ص ٤٤ الرنوك الإسلامية، ص ١٩

[٥] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٧٠ - ٣٧١

[٦] المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٣٥٨

[٧] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج ٦، ص ٣٧١؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٧٢؛أحمد عبد الرازق، الرنوك الإسلامية، ص ١٩

[٨] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ١٧٧ – ١٧٨؛ تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٤١٧؛ المقريزي، السلوك، ج/٢١، ص ٣٥٨-٣٦٠؛ العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٤٠٧ / ١٩٨٧، ج ١، ص ٢٤ – ٢٧؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٧٢؛ المكي، سمط النجوم العوالي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض، بيروت، ١٤١٩ / ١٩٩٨، ج ٤، ص ١٨؛ أحمد عبد الرازق، الجيش المصري ، ص ٤-٥؛ الرنوك الإسلامية، ص ٢٠

[٩] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ١٩٥؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٤١٧؛ المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٣٦١

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

هكذا بدأ المماليك حكمهم لمصر علي خلفية هذه النهاية التراجيدية لتورانشاه لتتبعها العديد من النهايات المأساوية لبعض سلاطين المماليك لتصبح السمة الغالبة لهذا العصر الذي كان عصر البقاء و الحكم للأقوى.

وسوف نحاول من خلال هذه الدراسة إلقاء الضوء علي النهايات الدامية و المأساوية لهؤلاء السلاطين عن طريق استعراض تلك النهايات والتي وردت في المصادر التاريخية المعاصرة و تذيلها الجداول التحليلية و الإحصائية لأهم النتائج التي توصل إليها البحث ليتبعها التعليق و الملاحظات علي هذه النتائج.

أولا : عصر المماليك البحرية:

تزوج المعز أيبك من شجر الدر لمواجهة المشاكل المختلفة التي واجهت المماليك سواء موقف الأيوبيين في الشام و الذي كان يهدد بالقضاء علي سلطانهم في مصر أو موقف الخليفة العباسي المستعصم بالله الذي كان يعيب علي أهل مصر أنهم اختاروا امرأة لتحكمهم و أرسل إليهم يقول "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاخبرونا حتى نسير إليكم رجلا"[١٠].

علي اثر هذه المشاكل قررت شجر الدر من الزواج من عز الدين أيبك (أتابك العسكر) علي أن تترك له السلطنة و تتنازل له عن الحكم و كان ذلك في ربيع الأول من سنة ٦٤٨ / يونيو ١٢٥٠[١١] و يبدو أن شجر الدر لم تكد تتنازل عن العرش لزوجها أيبك حتى عز عليها ذلك خاصة و أنها كانت تتمتع بشخصية قوية مكنتها من أن تسيطر علي أيبك سيطرة كاملة أضف إلي ذلك أنها كانت شديدة الغيرة[١٢].

و يذكر لنا المؤرخون أنه "لما بلغ شجر الدر أن زوجها الملك المعز أيبك يريد أن يتزوج ببنت الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل و قد عزم علي ذلك فتخيلت منه أنه ربما عزم علي إبعادها أو إعدامها بالكلية لأنه سئم من حجرها عليه و استطالتها بل و منعه من الاجتماع بأم ابنه علي و إلزامه بطلاقها، فعاجلته و عزمت علي الفتك به، و طلبت محسن الجوجري الصالحي وعرضت عليه أمرها ووعدته و منته إن قتل المعز، ثم استدعت جماعة من الخدم و اتفقت معهم"[١٣].

---

[١٠] المقريزي، السلوك، ج /٢، ص ٣٦٦ – ٣٦٨؛ عبد الرحمن الرافعي و سعيد عاشور، مصر في العصور الوسطي، ص ٤٣٣ - ٤٣٤

[١١] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ١٧٩؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج ٥، ص ٢١٠؛ المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج ٦، ص ٣٧٤؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ١٨ - ٢٠؛ ابن العماد،شذرات الذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط و محمود الأرناؤوط، دمشق، ١٤٠٦ / ١٩٨٥، ج ٥، ص ٢٦٨؛ عبد الرحمن الرافعي و سعيد عاشور، مصر في العصور الوسطي، ص ٤٣٤ - ٤٣٥

[١٢] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٧٥؛ ج ٧، ص ١٣؛ عبد الرحمن الرافعي و سعيد عاشور، مصر في العصور الوسطي، ص ٤٣٨

[١٣] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ١٩٦؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٤٢٠، ٤٣٤؛ المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٤٠٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٧٥؛ شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٦٧

ISSN: 1997-163X

World Research Organisation

Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

و قد أوردت لنا المصادر التاريخية روايتين مختلفتين بصدد مقتل أيبك:
تشير الرواية الأولى أنه "لما كان يوم الثلاثاء الثالث و العشرون من شهر ربيع الأول ٦٥٥ / أبريل ١٢٥٧، لعب المعز بالكرة و من معه و صعد إلى القلعة آخر النهار و أتى الحمام ليغتسل فلما قلع ثيابه و ثب عليه سنجر الجوجري و الخدم فرموه و خنقوه"[١٤].

و تشير الرواية الأخرى إلى أن شجر الدر لما "غارت رتبت للمعز سنجر الجوجري مملوك الفارس أقطاي[١٥] فدخل عليه الحمام و لكمه و رماه و ألزم الخدام معاونته و بقيت هي تضربه بالقبقاب وهو يستغيث و يتضرع إليها إلى أن مات"[١٦].

و قد استطرد الصيرفي في وصف هذه النهاية إذ يقول: "أخذ محسن الجوجري و من معه بأنثيي[١٧] الملك المعز أيبك لما أرادوا قتله"[١٨]، بينما ذكر ابن إياس أنهم "شدوا محا شمه بوتر حتى مات، فلما مات حملوه و أخرجوه من الحمام و أشاعوا أنه أغمي عليه في الحمام، فأرقدوه على فراش في الحمام"[١٩].
و كانت مدة حكمه سبع سنين إلا أياما، منها مدة انفراده بالسلطنة خمس سنين و ثلاثة أشهر.
و عندما شاع الخبر بقتل أيبك، طالب المماليك المعزية بالانتقام من شجر الدر، فحال دونهم المماليك الصالحية في البداية. و بعد عدة أيام وفي التاسع و العشرين من ربيع الأول، أخرجت شجر الدر من دار السلطنة إلي محبسها في البرج الأحمر بقلعة الجبل تصاحبها بعض جواريها[٢٠]، و سلمها علي (بن أيبك) إلى أمه، فأمرت جواريها أن يقتلوها بالقباقيب و النعال، فقتلوها حتى ماتت. فلما ماتت سحبوها من رجلها و رموها في خندق وراء القلعة و هي عريانة ليس في وسطها غير اللباس فقط، فاستمرت مرمية في الخندق ثلاثة أيام لم تدفن و قيل أن بعض الحرافيش نزل تحت الليل إلى الخندق و قطع تكة لباسها و كان فيه أكرة لؤلؤ و نافجة مسك"[٢١]

---

[١٤] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٧٦
[١٥] وفي عقد الجمان مملوك الطواشي محسن، ج١، ص
[١٦] البداية و النهاية، ج ١٣، ص ١٩٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٧٦
[١٧] الأنثيان في اللغة تعني الخصيتان و الأخذ بهما أي عصرهما- أنظر ابن منظور، لسان العرب، بيروت، ص ١٤٦؛ سعود العصفوري، وسائل التعذيب في العصر المملوكي، حوليات آداب عين شمس، المجلد ٣١، يناير – مارس ٢٠٠٣، ص ٩٠
[١٨] الصيرفي، إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٤٣١؛ سعود العصفوري، وسائل التعذيب في العصر المملوكي، ص ٩٠
[١٩] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ٢٠٠٨، س ج ١، ص ٢٩٤
[٢٠] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٧٨
[٢١] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٢٩٤

ISSN: 1997-163X
Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

و قيل -- في رواية أخرى -- أنها بعد مقتلها ألقيت على مزبلة ثلاثة أيام و قد نتنت ثم نقلت إلى تربة لها بالقرب من قبر السيدة نفيسة و كانت من قوة نفسها، لما علمت باقتراب نهايتها، أتلفت جواهرها و لآلئها بأن كسرتها في الهون[٢٢].

بعد مقتل أبيه عز الدين أيبك علي يد شجر الدر و خدمها كما رأينا فيما سبق، تولى ابنه الملك المنصور علي العرش و كان ذلك في الخامس و العشرين من شهر ربيع الأول ٦٥٥ / أبريل ١٢٥٧، و كان عمره حينئذ خمسة عشر عاما فوقع الاختيار في البداية علي علم الدين سنجر الحلبي ليكون أتابكا له و لكن سرعان ما قبض الأمراء المعزية علي الأمير المذكور ليعين عوضا عنه الأمير أقطاي المستعرب لتصل الأتابكية في نهاية الأمر إلى سيف الدين قطز[٢٣].

و كان واضحا منذ البداية رغبة قطز في الاستئثار بالحكم و إبعاد علي خاصة و أن تلك الفترة قد شهدت العديد من الأخطار المحدقة بمصر سواء من جانب الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام و حلب أو الملك المغيث ملك الكرك الذين كانا يطمحان في الاستيلاء على حكم مصر، أو من جهة المغول الذين راح خطرهم يشتد حتى وصلوا إلى حد الاستيلاء علي بغداد وقتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله و خرب بغداد سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨[٢٤].

و عندما وردت الأخبار عن مجيء التتار إلى البلاد الشامية، وجدها قطز فرصة سانحة للتخلص من المنصور علي، فجمع عددا من الأعيان و الأمراء و عرفهم أن "الملك المنصور هذا صبي لا يحسن التدبير في هذا الوقت الصعب، و لا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه كل أحد وينتصب للجهاد في التتار"[٢٥] فأجمع الحاضرون على أنه أجدر من يقوم بهذه المهمة.

خلع قطز المنصور علي في الحال و اعتقله ووالدته بقلعة الجبل في يوم السبت السابع عشر من ذي القعدة ٦٥٧ / نوفمبر ١٢٥٩ وكانت مدة حكمه سنتين وسبعة أشهر و اثنين و عشرين يوما[٢٦].

لذا يعد قطز هو أول مملوك يخلع ابن أستاذه من الملك ليتسلطن عوضه و لم يقع ذلك قبله من أحد من الملوك على حد تعبير المؤرخ ابن تغري بردي[٢٧]. و قد بقي المنصور علي معتقلا عدة

---

[٢٢] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ١٩٩؛ المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٤٠٤

[٢٣] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ١٩٨ - ١٩٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٤١، ٤٣

[٢٤] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٤٥ - ٥١

[٢٥] المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٤١٦ – ٤١٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٥٥

[٢٦] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٤٣٦؛ ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ٢١٦؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج ٥، ص ٢٣٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٥٥؛ القلقشندي، مآثر الإنافة، تحقيق عبد الستار فراج، الكويت، ١٩٨٥، ج ٢، ص ١٠٦؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٢٠، ص ١٦٠؛ السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، بيروت، ١٤١٤ / ١٩٩٣، ج ٢، ص ٢٧٥

[٢٧] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٥٦

ISSN: 1997-163X
Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

سنوات إلي أن تولي الظاهر بيبرس البندقداري الحكم فنفاه هو ووالدته و أخاه إلى بلاد الأشكري[٢٨] في ذي القعدة ٦٥٨ / أكتوبر ١٢٦٠[٢٩].

تسلطن سيف الدين قطز في وقت اشتد فيه خطر المغول، مما تطلب منه القبض على زمام أمور السلطنة بيد من حديد حتى يستطيع أن يعد العدة لمواجهة هذا الخطر الداهم الذي راح يقترب رويدا رويدا، بداية من العراق إلى الشام حتى غزة و بلد الخليل، ووصل بهم الأمر إلي حد إرسال خطاب تهديد من هولاكو إلى قطز يطلب فيه التسليم[٣٠].

لم يرضخ قطز أمام هذا التهديد، فجمع الأمراء و قتل الرسل ثم قرر الخروج على رأس جيش من المماليك للذود عن مصر و والتقى التتار عند عين جالوت قرب بيسان في فلسطين في رمضان ٦٥٨ / ١٢٦٠، وانكسرت ميسرة المسلمين في البداية كسرة شنيعة و لكن قطز ثبت في القتال وأبلى بلاء حسنا ونصر الله المسلمين و انكسرت التتار وولوا الإدبار[٣١].

كان لانتصار قطز في عين جالوت وقعا جميلا في نفوس المصريين حيث دقت البشائر بالقلعة وأقيمت الزينات بالقاهرة و استعدت البلاد لاستقبال قطز الذي لم يقدر له أن يرى أيا من هذه الاحتفالات بل لم يقدر له من الأساس أن يعود مرة ثانية إلى مصر حيث قتل غدرا و هو في طريق عودته منتصرا إلى القاهرة.

وعن مقتله تذكر المصادر التاريخية أن جماعة من الأمراء قد اتفقوا مع بيبرس البندقداري علي قتل قطز و ذلك بعد أن تنكر قطز لبيبرس حيث كان قد وعده بنيابة حلب ثم رجع و عهد بها إلي علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ[٣٢].

تخين الأمراء الفرصة المناسبة لتنفيذ مخططهم وعندما اقتربوا من الصالحية "ثارت أرنب فساق الملك المظفر قطز عليها و ساق هؤلاء المتفقون على قتله معه فلما أبعدوا و لم يبق معه غيرهم تقدم إليه الأمير بيبرس البندقداري و شفع عنده شفاعة في إنسان (يقال جارية من سبي المغول أحبها بيبرس) فأجابه، فأهوى بيبرس ليقبل يده (و كانت إشارة بينه و بين الأمراء) فقبض عليها

---

[٢٨] و يقصد بها مدينة اسطنبول

[٢٩] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٥٥؛ سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص ٣٨٢

[٣٠] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٤٢٣، ٤٣٧؛ ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣ ص ٢١٨ – ٢١٩؛ المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٤١٩ – ٤٢٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٧٣ - ٧٧

[٣١] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ٢٢٠؛ المقريزي، السلوك، ج ٢/١، ص ٤٢٩ – ٤٣٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٧٧ – ٧٩؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٤٢٧؛ الجبرتي، عجائب الآثار، ج ١، ص ٢٩

[٣٢] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ٢٢٢ - ٢٢٣؛ عبد الرحمن الرافعي و سعيد عاشور، مصر في العصور الوسطي، ص ٤٤٥

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

World Research Organisation

و حمل أنص[٣٣] عليه و قد أشغل بيبرس يده و ضربه بالسيف ثم حمل الباقون عليه و رموه عن فرسه و رشقوه بالنشاب فقتلوه"[٣٤].و كان ذلك يوم السبت ١٥ ذو القعدة ٦٥٨ / أكتوبر ١٢٦٠[٣٥] . و يذكر المقريزي بصدد هذه الواقعة أنه حين " أخذ بيبرس يد السلطان ليقبلها، بدره الأمير سيف الدين بكتوت بالسيف و ضرب به عاتقه، و اختطفه الأمير أنص و ألقاه عن فرسه و رماه الأمير بهادر المعزي بسهم أتى على روحه"[٣٦].

و هكذا انتهت سلطنة الملك المظفر قطز بعد أن حكم مدة سنة إلا يوما واحدا غدرا بعد أن كسر التتار كسرة جبر بها الإسلام فجزاه الله عن الإسلام خيرا[٣٧].

بعد مقتل قطز، عرفت البلاد نوعا من الاستقرار الذي استمر حوالي الأربعين عاما، لم تشهد خلالها مزيدا من النهايات المأساوية حتى تولى السلطنة الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن المنصور قلاوون، الذي تسلطن يوم وفاة أبيه الأحد ٧ ذي القعدة ٦٨٩ / نوفمبر ١٢٩٠ بعد أن كان قلاوون قد سلطنه في حياته بعد وفاة أخيه الملك الصالح علي[٣٨] .
و علي الرغم من مشاعر الكراهية و الريبة المتبادلة بين الأشرف خليل و الأمراء إلا أنه استطاع أن يوحد صفوف جيشه ليكمل ما بدأه والده للثأر من الصليبيين في عكا حتى دانت له بعد حصار دام نحو خمسة أشهر و كان فتح عكا من أجل الفتوحات في تلك الفترة[٣٩]. بيد أن نجاح الأشرف خليل في طرد فلول الصليبيين من الشام لم يشفع له لدى كبار الأمراء حيث تمادى في تكبره واستعلائه عليهم بل و عقابهم بالسجن أو القتل، الأمر الذي جعلهم يضيقون به ذرعا ويقررون التخلص منه و على رأسهم نائب السلطنة بدر الدين بيدرا[٤٠].
و كانت الفرصة للأمراء المتآمرين (وهم بيدرا و حسام الدين لاجين و شمس الدين قراسنقر وسيف الدين بهادر) لتنفيذ مخططهم عندما نزل السلطان من القلعة متوجها إلى الصيد فساقوا خلفه[٤١].

---

[٣٣] هو سيف الدين أنص من مماليك نجم الدين الرومي الصالحي، أنظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٣

[٣٤] ابن خليكان، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، لبنان،ج ٤، ص١٥٥؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٤٣٨؛ ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ٢٢٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٤؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٢٢ – ٢٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٢٤، ص ١٩٠؛ محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت، ج ١، ص ٨٤

[٣٥] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٧؛ المنهل الصافي الصافي و المستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٤٢٣ / ٢٠٠٢، ج ٩، ص ٧٦

[٣٦] المقريزي، السلوك، ج ١/٢، ص ٤٣٥

[٣٧] ابن العماد،شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٩٣

[٣٨] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٣؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٣٨١

[٣٩] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٥ - ١٣

[٤٠] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٢ – ١٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٦٩ - ٣٧٠

[٤١] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٦

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

" فلما رآهم السلطان قاصدينه أحس بالشر و ظهر له منهم الغدر، فلما قربوا منه عاجلوه بالحسام قبل الكلام فكان أول من بادر إليه بالحسام الأمير بيدرا النائب، فبادره بالسيف على يده فصاح عليه الأمير لاجين وقال ويلك، الذي يريد السلطنة يضرب هذه الضربة. ثم ضربه الأمير لاجين على كتفه بالسيف ضربة فوقع إلى الأرض، ثم جاء إليه الأمير بهادر و نزل عن فرسه و أدخل السيف في دبره و اتكأ عليه و أطلعه من حلقه و سار كل واحد من الأمراء يظهر ما في نفسه منه و تركوه ميتا في الفضاء ملقيا على ظهره و مضوا "[٤٢].

و تذكر المصادر التاريخية أنه لما قتل الأشرف خليل بقى في البرية ثلاثة أيام لم يدفن حتى أكل الذئاب وجهه ويديه و رجليه حتى خرج والي تروجة بمديرية البحيرة ومعه أهل المدينة، فوجده في موضعه عريانا بادي العورة، و أخذوه و غسلوه و كفنوه و جعلوه في تابوت في دار الوالي ثم أرسل إلى القاهرة ووصل إليها يوم الخميس ٢٢ صفر و دفن بتربة والدته بجوار أخيه الملك الصالح علي[٤٣].
وكان قتله يوم السبت ١٢ محرم ٦٩٣ / ديسمبر ١٢٩٣[٤٤] و بذلك تكون مدة حكمه ثلاث سنين وشهرين و خمسة أيام.بعد مقتل الأشرف خليل، تولي أخاه الناصر محمد بن قلاوون و كان له من العمر تسع سنوات[٤٥]، و أصبح الأمير كتبغا المنصوري نائبا للسلطنة و مدبرا للملكة[٤٦].

و نظرا لصغر سن السلطان و استخفاف الأمراء به، كان من الطبيعي أن يستبد كتبغا بأمور الدولة في حين أصبح السلطان الناصر محمد شبه محجورا عليه بالقلعة[٤٧].
و قد كان عفو كتبغا عن بعض الأمراء الذين اشتركوا في مؤامرة قتل الأشرف خليل سببا مباشرا في إثارة غضب عدد كبير من المماليك الأشرفية الذين أشاعوا الفوضى في المدينة و هجموا على إسطبلات الناس و أخذوا خيولهم و اضطربت الأحوال اضطرابا شديدا[٤٨].

---

[٤٢] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ٣٣٤؛ المقريزي، السلوك، ج ٣/١، ص ٧٩٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٧ - ١٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٧٤؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٢٦

[٤٣] ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ١٣٨٢؛ المقريزي، السلوك، ج ٣/١، ص ٧٩٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢٤ – ٢٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٧٥؛ العليمي، الأنس الجليل، تحقيق عدنان يونس عبد المجيد نباتة، عمان، ١٤٢٠ / ١٩٩٩، ج ٢، ص ٤٩٠؛ الجبرتي، عجائب الآثار، ج ١، ص ٣٢

[٤٤] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ٣٣٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ٤١؛ ذكر ابن إياس مقتله يوم السبت ١٥ محرم،ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص٣٧٧

[٤٥] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ٣٣٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ٤١

[٤٦] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ٣٣٥؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مراقبة محمد عبد المعين ضان، حيدراباد، ١٣٩٢ / ١٩٧٢، ج ٢، ص ٤٤٢ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٤٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٧٨المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٢٦

[٤٧] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٨١؛ عبد الرحمن الرافعي و سعيد عاشور، مصر في العصور الوسطي، ص ٤٧٨

[٤٨] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٤٨ – ٤٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٨٥ - ٣٨٦

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

اتخذ حسام الدين لاجين[٤٩] من تلك الثورة ذريعة ليقنع كتبغا بأهمية التخلص من الناصر محمد وراح يخوفه من عاقبة بقائه في السلطنة و قال له " متى كبر الملك الناصر لا يبقيك البتة و لا يبقي أحدا ممن تعامل على قتل أخيه الملك الأشرف و المصلحة خلعه و سلطنتك "[٥٠]
فجمع كتبغا الخليفة و القضاة و الأمراء و" تكلم معهم في عدم أهلية الناصر محمد للسلطنة لصغر سنه و أن الأمور لابد لها من رجل كامل تخافه الجند و الرعية و تقف عند أوامره و نواهيه"[٥١]، فاتفق الرأي على خلع الناصر محمد و تولية كتبغا بدلا منه و كان ذلك في ١١ محرم ٦٩٤ / ديسمبر ١٢٩٤[٥٢].

تشاءم الناس من حكم كتبغا حيث جاء مصحوبا بانخفاض النيل و عظم الغلاء و الفناء بالديار المصرية و أعمالها حتى أكل بعضهم الميتات و الكلاب و مات خلق كثير بالجوع والطاعون [٥٣].
ثم خرج كتبغا إلى بلاد الشام لأمر اقتضى ذلك و عند وصوله إلى دمشق عزل نائبها الأمر عز الدين أيبك الحموي وولى عوضه الأمير سيف الدين أغزلوا العادلي وصلى الجمعة بدمشق و أقام بها أياما حيث أحبه أهل دمشق و شكروا سيرته[٥٤].

في هذه الأثناء راح لاجين يؤلب الأمراء للوثوب على السلطان و الفتك به فلما لم يستطع دبر أمرا آخر حيث قبض على جماعة من الأمراء المقربين من السلطان و قتلهم و اتجه إلى مخيم السلطان بالقرب من وادي فحمة فلما علم كتبغا بوصول لاجين و أنه لا قبل له على قتاله فر راجعا إلى دمشق " وأما الأمير حسام الدين لاجين فإنه استولى على دهليز السلطان و الخزائن و الحراس والعساكر من غير ممانع و تسلطن في الطريق و لقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين و توجه إلى نحو الديار المصرية و ملكها"[٥٥] أما كتبغا فإنه بقي في قلعة دمشق أياما حتى وصل إليها لاجين في صفر ٦٩٦ / ديسمبر ١٢٩٦ ومعه المراسيم السلطانية فحضر القضاة "وطلبوا الملك العادل كتبغا فحضر و قرءوا عليه مراسيم السلطان لاجين بأن يخلع نفسه من السلطنة و يتوجه

---

[٤٩] هو حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري، أصله من مماليك المنصور قلاوون، أمره عندما تسلطن و جعله نائبا لقلعة دمشق، ثم قبض عليه و حبس ثم أصبح نائبا لدمشق بمرسوم من المنصور قلاوون و دام بها أحدى عشر سنة حتى عزله الملك الأشرف خليل بن قلاوون و قبض عليه و خنق بين يدي الأشرف خليل ثم خلى عنه فإذا به رمق فرق عليه السلطان و رده إلى رتبته – ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٢٠٠٢، ج ٩، ص ١٦٦، رقم ١٩٤٨

[٥٠] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٤٩

[٥١] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٤٩

[٥٢] الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج ٥، ص ٣٨٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٤٩ – ٥٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٨٦؛ محمد فريد، تاريخ الدولة العلية، ج ١، ص ٨٦

[٥٣] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ٣٤٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٦٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٨٩ - ٣٩١

[٥٤] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ٣٤٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٦١ – ٦٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٩١

[٥٥] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ٣٤٧ – ٣٤٩؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٤، ص ٢٥٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٦٤؛ العليمي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٩١

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

إلى صرخد ويقيم بها وله ما يكفيه من النفقة كل يوم، فأجاب بالسمع و الطاعة و خرج من يومه إلى صرخد و هو معزوز مكروم ومعه عياله و مماليكه و غلمانه"[٥٦].

و تجدر الإشارة هنا أنه عندما بايع الأمراء لاجين بالسلطنة بعد خلع كتبغا كانوا قد اشترطوا عليه بعض الشروط من بينها ألا يحابي مماليكه على حسابهم كما كان الحال مع كتبغا و ألا ينفرد برأي و ألا يبدي عليهم مملوكه منكوتمر حتى لا يضل فتعهد لهم بكل ذلك و قال لهم " أنا واحد منكم و لا أخير نفسي عنكم و لست موليا عليكم من مماليكي أحدا "[٥٧].

ولكن سرعان ما نسي لاجين وعوده بعد أن ثبت أمره في السلطنة، فقبض على الأمير قراسنقر نائب السلطنة و أرسله إلى السجن و عين بدلا منه منكوتمر[٥٨] فعز ذلك على الأمراء و كانت هذه هي بداية النهاية للسلطان: إذ أخذ منكوتمر في إقصاء العديد من الأمراء عن مناصبهم ليعين بدلا منهم أمراء لاجين، كما زادت الأمور تفاقما عند عمل الروك الحسامي[٥٩] حيث استبد منكوتمر بأمر القسمة و فرقت المثالات على الأمراء و العسكر بصورة مجحفة فلم يرضوا بذلك[٦٠].

و حقيقة القول أن عمل هذا الروك و تفرقته كان من أكبر الأسباب و أعظمها في فتك الأمراء بالسلطان لاجين و قتله وقتل نائبه منكوتمر أضف إلى ذلك أن لاجين أخذ في القبض على الأمراء بإيعاز من منكوتمر، ثم زاد السلطان على ذلك حين فوض لنائبه جميع أمور المملكة فاستبد بوظائف الملك و مهماته و استولى على عقل مخدومه بل و حجبه عن العامة و الخاصة [٦١]، فقرر الأمراء التخلص من كليهما[٦٢].

و في يوم الخميس ١٠ ربيع آخر ٦٩٨ / يناير ١٢٩٩ و كان السلطان صائما، فذهب إلى القصر الكبير و فطر هناك ثم جلس يلعب الشطرنج. فانتهز جماعة من المماليك الأشرفية الفرصة واتفقوا مع المماليك البرجية على تنفيذ المؤامرة.

---

[٥٦] القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق عبد القادر زكار، دمشق، ١٩٨١، ج ٣، ص ٥٠٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٩٢

[٥٧] مفضل ابن أبي الفضائل، النهج السديد المعروف بتاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشيه، باريس، ١٩١٩، ص ٥٩٦؛ المقريزي، السلوك، ج ٣/١، ص ٨٢١ – ٨٢٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٩٩؛ عبد الرحمن الرافعي و سعيد عاشور، مصر في العصور الوسطى، ص ٤٨٠ - ٤٨١

[٥٨] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٣، ص ٣٥١؛ ج ١٤، ص ٢

[٥٩] الروك الحسامي هو عملية إعادة مسح الأراضي الزراعية وفك الزمام وتعديل الخراج، وعرف بذلك لقيام حسام الدين لاجين به، أنظر المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٨٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٠٠؛ مآثر الإنافة، ج ٢، ص ١٢٢، ١٣٥ السخاوي، التبر الباسم، ج ١، ص ٢٣٥، هامش ١

[٦٠] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٤٧١؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٤، ص ٢٢٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٩٠ – ٩٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٩٧؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٤٤٠

[٦١] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٩٥، ٩٨، ١٠٠

[٦٢] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٢٤، ص ٢٩٠

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

"فلما دخل وقت العشاء تقدم كرجي[٦٣] إلى عند الشمعة ليصلحها فأرمى الفوطة على النمجاة[٦٤] والسلطان منكب على لعب الشطرنج لا يدري ما خبئ له في الغيب فلما مضى وقت العشاء التفت السلطان إلى كرجي و قال له غلقت أبواب الأطباق على المماليك البرجية ؟ فقال له نعم فشكره وأثنى عليه و كانت المماليك البرجية واقفة بالسيوف في دهليز القصر من بعد المغرب. ثم قال له كرجي يا خوند ما تصلي العشاء فقال نعم فلما قام يصلي ضربه كرجي بالسيف فهدله فبادر السلطان ليأخذ النمجاة فلم يجدها فقبض على كرجي و رماه إلى الأرض فهجمت عليه المماليك البرجية الذين كانوا في دهليز القصر ووقعوا في السلطان بالسيوف، قطعوه قطعا" [٦٥] و بذلك تكون مدة سلطنته نحو سنتين و شهرين و أيام.

بعد مقتل لاجين، وجد الأمراء أن الناصر محمد بن قلاوون هو أنسب من يتولى السلطنة مرة أخرى خاصة و أنه كان في نظر الكثير منهم هو صاحب الحق الشرعي في السلطنة فأرسلوا إليه لإحضاره من الكرك (حيث أرسله لاجين) فتمهل في الحضور حتى يرى ما يكون من أمر الأمراء ووصل مصر بعد واحد و أربعين يوما و كان ذلك يوم السبت ٤ جمادى الأولى ٦٩٨ / فبراير ١٢٩٩ و أخلع على سلار المنصوري ليكون نائبا للسلطنة و على بيبرس الجاشنكير فاستقر أتابكه [٦٦].
و قد عانى الناصر محمد الأمرين خلال هذه الفترة من سطوة سلار و بيبرس الجاشنكير و سوء معاملتهما له و منعه من التصرف و ضيق يده فكان يعيش كالمحجور عليه لا يستطيع التصرف في أي أمر من أمور السلطنة إلا باختيارهما و موافقتهما، لدرجة أنهما كانا يتدخلان حتى في نوعية الطعام الذي يتناوله إذ يذكر المؤرخون أن السلطان كانت له رغبة في تناول إوزة مشوية فمنع منها و قيل له "حتى يجيء كاتب الأتابكي بيبرس" [٦٧].

كان من الطبيعي أن يضيق السلطان ذرعا من هذا الحجر فقرر تدبير مؤامرة للقبض عليهما بمعاونة بعض أمرائه المقربين، و كان لكل من بيبرس و سلار أعين عند السلطان فتكشفت المؤامرة فأخذ الأميران حذرهما فبطلت محاولة السلطان[٦٨].

---

[٦٣] كانت تلك الليلة نوبة شخصين من السلحدارية أحدهما اسمه كرجي و الآخر نوغان الكرمان و يقال له نوغيه، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٠١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٩٨

[٦٤] النمجاة لفظ فارسي الأصل و يقصد به آلة شبه الخنجر مقوسة، و يقال له نمجا و نمجه - أنظر الصيرفي، نزهة النفوس و الأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧٠، ج ١، ص ٣٨، هامش رقم ١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٤١

[٦٥] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٤، ص ٤٣؛ المقريزي، السلوك، ج ١/ ٣، ص ٨٥٥ – ٨٥٦؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٩، ص ١٦٧ – ١٦٨؛ اليافعي، مرآة الجنان، القاهرة، ١٤١٣ / ١٩٩٢، ج ٤، ص ٢٢٩؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٢٤، ص ٢٩١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٩٨ – ٣٩٩؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٤٤٠

[٦٦] الذهبي، من ذيول العبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، ج ٦، ص ٢٢٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١١٥، على حين ذكر ابن إياس دخوله إليها يوم الخميس ٨ ، بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٠١ - ٤٠٢

[٦٧] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٩، ص ٦٦؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٤٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٧٥، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٢١

[٦٨] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٧٠ - ١٧١

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

خشي السلطان الناصر محمد على نفسه من الانتقام كما تزايد همه و نكده من تحكم بيبرس وسلار عليه فأشاع أنه يريد الحج بعياله وكان ذلك في منتصف رمضان ٧٠٨ / فبراير ١٣٠٩ فوافقا على سفره فخرج يوم السبت ٢٥ رمضان هو و أولاده و نسائه و اتجه إلى بركة الحاج و عيد هناك ثم رحل إلى الكرك يوم الأحد ١٠ شوال. وعندما استقر السلطان بقلعة الكرك عرف الأمراء أنه قد قرر الإقامة بالكرك و يترك السلطنة و خلع نفسه ليهدأ باله ثم أرسل ما كان معه من خزائن المال والهجن التي كانت معه برسم الحج صحبة الأمراء، كما أرسل معهم رسالة إلي سلار وبيبرس تتضمن رغبته عن الملك[٦٩] كتب فيها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، حرس الله تعالى نعمة الجنابين العليين الكبيرين الغازيين المجاهدين وفقهما الله تعالى توفيق العارفين ، أما بعد فقد طلعت إلى الكرك و هي من بعض قلاعي و ملكي و قد عولت على الإقامة فيها فإن كنتم مماليكي و مماليك أبي فأطيعوا نائبي (يعني نائبه سلار) ولا تخالفوه في أمر من الأمور و لا تعملوا شيئا حتى تشاوروني فأنا ما أريد لكم إلا الخير و ما طلعت إلى هذا المكان إلا لأنه أروح لي و أقل كلفة و إن كنتم ما تسمعون مني فأنا متوكل على الله " [٧٠]

كان رد الأميرين عليه رسالة كلها سخرية و استهجان و تهكم فأرسل إليهم آلة الملك مثل العصائب السلطانية و السنجق و الكوسات و كان رده عليهم " انظروا في حالكم فأنا ما بقيت أعمل سلطانا و أنتم على هذه الصورة فدعوني أنا في هذه القلعة منعزلا عنكم على أن يفرج الله تعالى إما بالموت و إما بغيره" [٧١]

و بعد مشاورات بايع الأمراء بيبرس الجاشنكير سلطانا للبلاد في ٢٣ شوال ٧٠٨ / أبريل ١٣٠٩[٧٢]، و أخلع على سلار ليكون نائبا للسلطنة على عادته[٧٣].

لم يستطع بيبرس أن يحظى بالقبول لدى عامة الشعب ذلك أن الناصر محمد كان يتمتع بشعبية كبيرة في مصر و الشام و كانوا دائما ما يتغنون بعودته خاصة عندما توقفت زيادة النيل وارتفع

---

[٦٩] الذهبي، من ذيول العبر، ج ٦، ص ٤٤١؛ ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٤، ص ٤٨؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤ ، ص ٤٢٨؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٨، ١٣٥ ؛ الجبرتي، عجائب الآثار، ج ١، ص ٣٣

[٧٠] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٧٥ – ١٨٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٢٠ – ٤٢١

[٧١] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٨١

[٧٢] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٤، ص ٤٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٨١؛ القلقشندي، مآثر الإنافة، ج ٢، ص ٤١٧٥ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٢٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٨؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، ١٣٧١ / ١٩٥١، ج ١، ص ٤٨٥

[٧٣] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٤، ص ٤٩ – و تذكر المصادر أن الأمراء اختاروا سلار ليكون هو السلطان و لكنه اعتذر عن قبول المنصب و أشار إلى بيبرس قائلا أنه لا يصلح للملك وأن الذي يصلح له هو بيبرس، المقريزي، السلوك، ج ١، ص

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

سعر القمح و سائر الغلال و تشاءم الناس بسلطنة بيبرس و من يومها وقعت الوحشة بينه و بين الناس[٧٤].

على الجانب الأخر فإن الناصر محمد - الذي لم يسلم من استفزازات بيبرس المتكررة بل وتهديداته حتى وهو في الكرك - كان قد بدأ يتنبه إلى أحقيته في العرش، فقرر أن ينظم صفوفه خاصة و أن عددا كبيرا من أمرائه قد تجحوا في الذهاب إليه، أضف إلى ذلك أن أمراء و نواب الشام لم يعترفوا بهذه السلطنة و باتوا يؤكدون على ولائهم للناصر محمد و حثه على استرداد عرشه و تأكيدهم على نصرته[٧٥].

قرر الناصر محمد مغادرة الكرك و الحضور إلى مصر، فخرج إليه عدد كبير من الأمراء والأجناد لنصرته و قد عمل له "سائر شعار السلطنة من السناجق الخليفتية و السلطانية والعصائب و الجتر و الغاشية" و سار إلى دمشق يوم الثلاثاء ١٢ شعبان ٧٠٩ / يناير ١٣١٠، وفي يوم الجمعة ٢٢ شعبان خطب له بدمشق و انقطع منها اسم المظفر فكان يوما مشهودا[٧٦].

وجد بيبرس نفسه بلا نصير سواء من الأمراء أو من الشعب و علم أنه هالك لا محالة فقرر أن يستدعي الأمراء ليستشيرهم فيما يفعل فأشاروا عليه بنزوله عن الملك و الإشهاد عليه كما فعل الناصر محمد من قبل، كما أشاروا عليه بأن يرسل إلى الناصر محمد ليخبره بما انتوى عمله وليستعطفه، و في تلك الأثناء يتجه إلى أطفيح ليقيم بها حتى يرد جواب الملك الناصر[٧٧].

عندما وقع الاتفاق على ذلك، كتب بيبرس كتابا إلى الملك الناصر ثم طلب القضاة الأربعة و خلع نفسه من الملك و أشهد عليه بذلك و كان ذلك يوم الثلاثاء ١٦ رمضان ٧٠٩ / فبراير ١٣١٠[٧٨]

خرج بيبرس من القلعة ليلا بعد أن أخذ من المال و الخيل ما أحب، فلما عرف الناس بخروجه، خرجوا وراءه يطاردوه و يسبوه و كادوا يفتكون به فحاول أن يشغلهم بما رماه إليهم من مال واتجه إلى أطفيح حيث أقام بها يومين ثم فكر في المسير إلى برقة و قيل إلى أسوان[٧٩].

---

[٧٤] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢٤٣ - ٢٤٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٢٤ – ٤٢٥

[٧٥] الذهبي، من ذيول العبر، ج ٦، ص ٢٢٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨١، ص ٢٣٨ - ٢٤٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٢٥ - ٤٢٧

[٧٦] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢٦٧ – ٢٦٨

[٧٧] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢٧٠

[٧٨] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٢٨ - ٤٢٩

[٧٩] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٤٨٤ - ٤٨٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ٢١٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٤٦ – ٤٧؛ المقريزي، السلوك، ج ١/٢، ص ٧١ - ٧٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢٧١؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٢٨؛ الشوكاني، البدر الطالع، بيروت، ج ١، ص ١٦٨

ISSN: 1997-163X
Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

عندما علم مماليك بيبرس بنيته قرروا مفارقته و العودة إلى القاهرة، و عند وصوله إلى أخميم، لحق به بيبرس الدوادار و بهادر آص، و أعطياه الأمان و تلطفا معه حتى استردا كل ما كان قد أخذه من الأموال و الخيل و المماليك ورجعا إلى الملك الناصر، فردا الأموال إلى الخزائن والخيول إلى الإسطبل و المماليك إلى الطباق[٨٠].

أما ما كان من أمر المظفر بيبرس، فإنه توجه إلى السويس، فأرسل الملك الناصر خلفه الأمير أسندمر الكرجي فقبض عليه و هو في الطريق و أحضره إلى القلعة في الليل و سجن في البرج الكبير[٨١].

فلما كان يوم الخميس ١٤ ذو القعدة ٧٠٩ / أبريل ١٣١٠، جلس السلطان في محل خلوة و طلب بيبرس، فلما مثل بين يدي السلطان قبل الأرض فأجلسه و ذكره بما كان منه في حقه و راح يذكره بما فعله معه و يعدد له مساوئه و ذنوبه و قال له : " تذكر و قد صحت علي يوم كذا بسبب فلان ورددت شفاعتي في حق فلان و استدعيت بنفقة في يوم كذا من الخزانة فمنعتها و طلبت في وقت حلوى بلوز و سكر فمنعتني ويلك و زدت في أمري حتى منعتني شهوة نفسي... و أمس تقول لما طلبت إوزا مشويا إيش يعمل بالأوز الأكل هو عشرون مرة في النهار " . ثم أحضر الملك الناصر المشاعلي و أمر بخنق بيبرس بين يديه بوتر حتى كاد يتلف ثم تركه حتى أفاق و عنفه و شتمه ثم خنقه مرة ثانية حتى مات و أنزل إلى الإسطبل السلطاني فغسل و دفن خلف قلعة الجبل[٨٢] وفي رواية أخرى قيل أن الناصر محمد ربما يكون قد سقاه سما[٨٣]. و بعد مدة شفع فيه بعض الأمراء عند السلطان الذي أمر بنقله ليدفن في خانقاته[٨٤] فدفن بها في أواخر سنة ٧٠٩ /

١٣١٠[٨٥] بعد أن محي الملك الناصر ما عليها من ألقاب سلطانية[٨٦].
و هكذا انتهت سلطنة الملك المظفر بيبرس و كانت مدة حكمه عشرة أشهر و أربعة و عشرين يوما و تولى الناصر محمد السلطنة للمرة الثالثة و التي امتدت طوال إحدى و ثلاثين عاما (٧٠٩

---

[٨٠] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢٧٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٣٢ - ٤٣٣
[٨١] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢٧٣ - ٢٧٤
[٨٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٤٤٧؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ٢١٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢٧٥؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج ١، ص ١٦٩
[٨٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٤٤٧؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج ١، ص ١٦٩
[٨٤] تقع هذه الخانقاة بشارع الجمالية الممتد من شارع النصر، تجاه الدرب الأصفر، و قد شيدها بيبرس الجاشنكير في سنة ٧٠٧ / ١٣٠٨ كما جاء في وثيقة الوقف أي قبل أن يلي السلطنة و فرغ منها في ١٦ رمضان سنة ٧٠٩ / فبراير ١٣١٠. و يفهم من المقريزي أنه بعد خلع السلطان بيبرس من السلطنة و القبض عليه و قتله، أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بغلقها فغلقت و أخذ سائر ما كان موقوفا عليها و محا اسمه من الطراز الذي بظاهرها فوق الشبابيك – أنظر المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ٤١٦ - ٤١٨ ؛ أحمد عبد الرازق، العمارة الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٢٤٨ – ٢٥٧؛
Abouseif, Islamic Architecture in Cairo, An Introduction, Cairo, 1998, pp. 104 - 107
[٨٥] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٣٤
[٨٦] Mme. RL Devonshire, L'Egypte musulmane, Le Caire, 1982, p. 88

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

- ٧٤١ / ١٣١٠ - ١٣٤٠) [٨٧]، و هي مدة طويلة لم يدانيه فيها سلطان آخر من سلاطين المماليك، شهدت البلاد خلالها أزهي عصورها و أكثرها رخاء و ازدهارا.

بيد أن وفاة الناصر محمد جاءت إيذانا بانتهاء فترة الاستقرار و الرخاء اللذين تمتعت بهما البلاد في عصر ذلك السلطان وتولى السلطنة من بعده عدد كبير من أبنائه و أحفاده الذين لم يستطيعوا أن يحافظوا على هذا الاستقرار سواء بسبب ضعفهم أو بسبب صغر سنهم و طيشهم.

و نذكر منهم الملك الكامل سيف الدين شعبان بن الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي تسلطن بعد موت أخيه الملك الصالح إسماعيل يوم الخميس ٤ ربيع الآخر ٧٤٦ / أغسطس ١٣٤٥[٨٨]، حيث ساءت الأمور كثيرا في عصره لما عرف من طيشه و لهوه و عدم تقديره للأمور و كثرت الاضطرابات بينه و بين الكثير من أمرائه و نوابه فراح يعزل هذا و يقبض على ذاك فتنكرت له قلوب الأمراء، كما سخط عليه شعبه و كثر دعاؤهم عليه لما عانوه من سوء الأحوال و غلاء الأسعار وضرر الزروع و كثرة مغارم البلاد، أضف إلى ذلك اتهامه بقتل أخويه الأشرف كجك و ويوسف بن الناصر محمد فعظم ذلك على الناس قاطبة [٨٩].

عند هذا الحد قرر النواب بالبلاد الشامية الاجتماع بظاهر دمشق لخلع السلطان و بعثوا إليه برسالة تذكره بما قاله الناصر محمد (والده في وصيته) و كان من بينها: " إذا أقمتم أحدا من أولادي و لم ترضوا بسيرته جروا برجله و أخرجوه و أقيموا غيره أحدا " و ذكروا له أنه أفسد المملكة و أفقر الأمراء و الأجناد و أنه قتل أخاه و قبض على أكابر الأمراء و اشتغل عن الملك وزاد لهوه بالنساء و شرب الخمر [٩٠].

ثم قدم إليه خطاب ثان من نائب الشام فحواه أنه لا يصلح للملك و إنما أخذه بالغلبة من غير رضا الأمراء و أنه من المصلحة أن يعزل نفسه ليتولى غيره. فلما سمع السلطان ذلك استدعى الأمراء ثم طلب بإحضار أخويه و هما أمير حاجي و أمير حسين فلما لم يحضرا أرسل بالقبض عليهما وأدخلهما إلى موضع في الدهيشة[٩١] و بني عليهما حائط ليجعله قبرا لهما و قام فيهما العزاء [٩٢].

---

[٨٧] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٣ - ٣٢٥

[٨٨] الذهبي، من ذيول العبر، ج ٦، ص ٢٤٨ – ٢٤٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١١٦؛ القلقشندي، مآثر الإنافة، ج ٢، ص ١٥١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٠٦ ؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٣١

[٨٩] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٤، ص ٢١٩؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٤، ص ٢٦٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٥١؛ ج ٦، ص ٢٤٦؛ ج ٢، ص ١٠٠؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٤، ص ٢٦٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٢٠ – ١٣٣؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٢٩ – ٣٠؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٥٠

[٩٠] المقريزي، السلوك، ج ٣/٢، ص ٧١٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٣٤

[٩١] قاعة بالقلعة عمرها السلطان الصالح إسماعيل ابن الناصر محمد سنة ٧٤٥ / ١٣٤٤، و تطل على الحوش السلطاني، أنظر المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١٢

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

على جانب آخر، فإنه لما بلغ أرغون شاه و ملكتمر الحجازي أن السلطان يريد القبض عليهما فإنهما ركبا إلى قبة النصر[٩٣] بصحبة مماليكهما و حواشيهما فركب السلطان لملاقاتهم فانهزم عسكره و فر الملك الكامل إلى القلعة و اختفى عند أمه، فسار الأمراء إلى القلعة وأخرجوا الأمير حاجي و الأمير حسين من محبسهما و قبلوا يد أمير حاجي و خاطبوه بالسلطنة[٩٤].

أما عن السلطان فإنه كان قد اختبأ في أحد الأزيار فلما وجدوه كانت ثيابه مبتلة بالماء ومتسخة، فقبضوا عليه ومضوا به إلى الدهيشة فسجنوه في المكان الذي كان فيه أخويه و كان ذلك في مستهل جمادى الآخر ٧٤٧ / سبتمبر ١٣٤٦، و استمر الملك الكامل في السجن حتى يوم الأربعاء ٣ جمادى الآخر ٧٤٧ / سبتمبر ١٣٤٦حيث قتل وقت الظهر بأمر من أخيه حاجي [٩٥].

وهكذا انتهت سلطنة الملك الكامل شعبان و كانت مدة حكمه سنة واحدة و ثمانية و خمسين يوما وتولى من بعده أخوه الملك المظفر زين الدين حاجي بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، يوم الإثنين أول جمادى الآخر ٧٤٧ / سبتمبر ١٣٤٦[٩٦].

انهمك السلطان الصغير في اللذات و الشغف بجواريه و انهمك على اللهو بهن و انقطاعه إليهن بقاعة الدهيشة عن الأمراء، كما أنفق كثير من الأموال في العطاء لهن و لغيرهن فأعرض عن تدبير شئون المملكة[٩٧].

أضف إلى ذلك ما عرف عنه من ولعه بلعب الحمام و إنفاقه الأموال الطائلة حتى قال عنه المؤرخون : " و قد اشتغل بلعب الطيور عن تدبير الأمور و النهي عن أمر الأحكام بالنظر إلى الحمام ..... فخرج في ذلك عن الحد و لا صار يعرف الهزل من الجد"[٩٨].

---

[٩٢] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١١، ص ١٨٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٣٥ - ١٣٦ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٠٩؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج ١، ص ١٨٧

[٩٣] قبة النصر هي زاوية يسكنها فقراء الصوفية من العجم و هي خارج القاهرة بالصحراء تحت الجبل الأحمر بأخر ميدان القبق، و قد جددها الملك الناصر محمد على يد الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك، المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ٤٣٣

[٩٤] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٤، ص ٢١٩؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١٠٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٣٦ - ١٣٩

[٩٥] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٥٠٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٣٦ - ١٤٠؛ بينما ذكر ابن إياس أنه خنق في الليل، بدائع الزهور، ج ١، ص ٥١١ - ٥١٢

[٩٦] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٤٨

[٩٧] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٥٤، ١٥٦

[٩٨] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١٠٠ - ١٠١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٥١٥ – ٥١٦؛ Wiet, Fêtes et jeux au Caire, Antsl, VIII, Le Caire, 1969, p. 120; Hiba Yusuf, La passion des oiseaux et des

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

وعندما اشتد ضيق الأمراء منه جراء هذه الأفعال، أرسلوا إليه الأميرين ألجيبغا و طنيرق ليحدثاه في ذلك، فما كان منه إلا أن اشتد حنقه و صعد إلى السطح و ذبح الحمام بيده و قال لهم " والله لأذبحنكم كما ذبحت هذه الطيور"[٩٩] (يقصد الأمراء)

فلما بلغ الأمراء ذلك بلغ منهم الضيق مبلغه و قرروا خلع السلطان و خرجوا إلى قبة النصر التي تحت القلعة يوم الأحد ١٢ رمضان ٧٤٨ / ديسمبر ١٣٤٧ ليخبروه بقرارهم فما كان منه إلا أن قال " ما أموت إلا على ظهر فرسي" فلما برز له الأمير بيبغا أرس ضربه السلطان بالطبر فأخذ بيبغا الضربة بترسه ثم حمل عليه بالرمح و تكاثروا عليه حتى قلعوه من سرجه و ضربه طنيرق بالسيف فجرح وجهه و أصابعه. ثم ساروا به على فرس غير فرسه إلى تربة أق سنقر الرومي تحت الجبل و ذبحوه من ساعته قبيل العصر و دفن بتربة أمه[١٠٠] و يقال قطع قطعا[١٠١].
و هكذا انتهت سلطنة الملك المظفر حاجي و كانت مدة حكمه سنة واحدة و ثلاثة أشهر و أربعة عشر يوما و تولى السلطنة من بعده الملك الناصر بدر الدين و قيل ناصر الدين أبو المعالي حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي تسلطن للمرة الأولى يوم الثلاثاء ١٤ رمضان ٧٤٨ / ديسمبر ١٣٤٧و كان عمره حينئذ إحدى عشرة سنة[١٠٢].

زادت أحوال البلاد سوءا خلال هذه الفترة بسبب انتشار وباء الطاعون بصورة لم تشهدها البلاد من قبل و كان ذلك في السنة الثانية من حكم الناصر حسن ٧٤٩ / ١٣٤٨، فكان يموت بالقاهرة و مصر ما بين عشرة آلاف إلى عشرين ألف نفس كل يوم ووقع الغلاء وكادت مصر أن تخرب في تلك السنة من الغلاء و الفناء[١٠٣].

على الجانب الآخر، فقد شهد العامان التاليان من حكم الناصر حسن، كما جرت العادة في هذا العصر، العديد من الصراعات بينه و بين الأمراء و بين الأمراء و بعضهم البعض و كانت أن وصلت هذه الخلافات إلى ذروتها في سنة ٧٥٢ / ١٣٥١ حيث تزايدت المظالم في البلاد

---

animaux à l'époque musulmane, Annals of the Faculty of Art, Ain Shams University, Vol. 34, Oct - Déc 2006, p. 1358

[٩٩] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٥١٠؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١٠٢؛ المقريزي، السلوك، ج ٣/٢، ص ٧٤١ – ٧٤٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٥٨، ١٧٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٥١٦

[١٠٠] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٤، ص ٢٢٤؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ٢٢١؛ المقريزي، السلوك، ج ٣/٢، ص ٧٤٣ – ٧٤٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٧٠- ١٧٢؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٤٣١؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٥٣

[١٠١] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٤، ص ٢٢٤

[١٠٢] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٤، ص ٢٢٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٨٧

[١٠٣] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٤، ص ٢٢٥ – ٢٢٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٩٥- ٢١٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٢٣ - ٥٣١

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

المصرية بسبب شخص من الأراذل فكثر الدعاء على السلطان بسبب ذلك و تغيرت خواطر الأمراء عليه[١٠٤].

و في أوائل جمادى الآخرة مرض السلطان و لزم الفراش أياما، فبلغ طاز المنصوري ومنكلي بغا و مغلطاي أنه أراد بذلك أن يقبض عليهم إذا دخلوا عليه يعودونه، فلما كان يوم الأحد ٢٧ جمادي الآخر ٧٥٢ / أغسطس ١٣٥١[١٠٥] ركب الأمراء المذكورون ومعهم آخرين حتى وصلوا إلى قبة النصر خارج القاهرة فخرج السلطان ليسألهم عن سبب حضورهم فخبروه أنهم علموا بنواياه تجاههم ثم طلبوا منه أن يسلمهم (و هم تنكز بغا و قشتمر و ألطنبغا الزامر و ملكتمر) فلما وصلوا إليهم قيدوهم و أرسلوهم إلى خزانة شمائل[١٠٦] فصعب ذلك على السلطان و بكى و قال قد نزلت عن السلطنة" ثم أرسل إليهم النجاة[١٠٧].

ثم دخل السلطان إلى دور الحرم فذهب إليه صرغتمش و قطلوبغا الذهبي و معهم جماعة ليأخذوه و يحبسوه فصرخت الست حدق و النساء صراخا عظيما ثم أخرجوه و قد غطوا وجهه إلى الرحبة فلما رآه المماليك بكوا عليه، ثم طلعوا به إلى رواق فوق الإيوان ووكلوا به من يحفظه ثم رجعوا إلى الأمراء الذين اتفقوا على خلعه من السلطنة و سلطنة أخيه الملك الصالح صالح بدلا منه[١٠٨].

لم تختلف أحوال البلاد كثيرا خلال هذه الفترة حيث حفلت بالكثير من الاضطرابات و القلاقل ما بين الأمراء الكبار خاصة حين فوض السلطان أمور المملكة كلها إلى الأمير طاز فشق ذلك على بقية الأمراء ودبت بينهم الفتن و كان على رأسها الفتنة التي دبرها منكلي بغا و مغلطاي و انتهت بانكسارهما و القبض عليهما[١٠٩].

كذلك ساءت الأمور كثيرا حين خلع السلطان على الأمير صرغتمش ليستقر رأس نوبة كبيرا وجعل إليه التصرف في أمور الدولة كلها من الولاية و العزل و الحكم فكثرت مهابته وعظم

---

[١٠٤] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٣٧

[١٠٥] ذكر الصفدي تاريخ ١٨ جمادي الآخر، الوافي بالوفيات، ج ١٦، ص ١٥٦ على حين ذكر ابن إياس تاريخ ١٧ جمادي الآخر، بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٣٧

[١٠٦] خزانة شمائل كانت سجنا شنيعا لأرباب الجرائم و كانت تقع بشارع المعز إلي يسار الداخل من باب زويلة بالسور الجنوبي لمدينة القاهرة، و قد سجن بها المؤيد شيخ المحمودي " فقاسي في ليلة من البق و البراغيث " فنذر لله تعالي إن تيسر له الخروج من هذا السجن و آل إليه ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجدا لله عز و جل و مدرسة لأهل العلم، فلما نجاه الله و آلت إليه السلطنة شرع في بناء المسجد الذي استمرت عمارت ست سنوات من ٨١٨ / ٨٢٤ – ١٤١٥ – ١٤٢١ فجاء في أحسن صورة – أنظر المقريزي، خطط، ج ٢، ٣٢٨ – ٣٣٠؛ أحمد عبد الرازق، العمارة العربية، ص ٣٣٩ - ٣٥٥

[١٠٧] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٤، ص ٢٣٩ – ٢٤٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٣١

[١٠٨] الذهبي، من ذيول العبر، ج ٦، ص ٢٨٤؛ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٦٠؛ المقريزي، السلوك، ج ٣/٢، ص ٨٤١ – ٨٤٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٣١

[١٠٩] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٣٩ - ٥٤٠

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

ترفعه على الناس فتنكر له الأمراء و كثرت الأراجيف بوقوع فتنة و إعادة الناصر حسن و مسك شيخون مما سبب الوقيعة بينه و بين طاز و لكن شيخون نجح في الإصلاح بينهما [110] .

و في السنة الثانية من حكم الملك الصالح، وردت الأخبار من حلب أن بعض الأمراء وعلى رأسهم بيبغا أروس و كذلك نواب البلاد الشامية قد أظهروا العصيان على السلطان الذي خرج إليهم بنفسه و نجح في الظفر بهم و صار عسكر السلطان يقبض على كل من كان مع بيبغا من الأمراء و النواب الذين خرجوا عن الطاعة و وضعوهم في القيود ووسطوا[111] واحدا بعد الآخر فيما عدا ملكتمر فإنه أعيد إلى السجن [112].

و قد شهدت السنة الأخيرة من سلطنة الملك الصالح و نعني بها سنة ٧٥٥ / ١٣٥٤ الوقيعة والفتنة بين صرغتمش و طاز (و كان كلا منهما يخشى شر الآخر)، و طال الأمر حتى اتفق طاز مع إخوته و مماليكه و أصحابه أن يخرج هو إلى الصيد في حين يركبون هم على صرغتمش وتقاتل الفريقان فانكسر إخوة طاز و قبض عليهم و على أكابر مماليك طاز و هربت البقية ثم دخل صرغتمش هو و من بقي من الأمراء المقدمين إلى شيخون و قالوا " لابد من خلع الملك الصالح وإعادة الملك الناصر حسن إلى السلطنة"، فحاول شيخون أن يتعلل ببعض الأعذار لإبقاء الصالح فرفضوا و لم يزالوا به حتى أذعن و اتفقوا على خلعه و حبسوه في بيت من قلعة الجبل و أرسلوا ليشهدوا عليه أنه خلع نفسه من السلطنة[113]

بعد خلع الملك الصالح، اجتمع الأمراء بالقلعة و تشاوروا فيمن يلي السلطنة فكان الاتفاق على عودة الناصر حسن مرة أخرى فطلبوه من محبسه في القلعة و كلموه في عودته بناء على شروط اشترطوها ثم جلس على تخت الملك للمرة الثانية يوم الاثنين ٢ شوال ٧٥٥ / أكتوبر ١٣٥٤[114].

لم تشهد فترة السلطنة الثانية للناصر حسن من الأحداث الجسام خلا القليل و ربما كان على رأسها عمارة مدرسته التي لم يعمر في سائر الأقاليم مثلها و التي تعد بحق درة العمارة الإسلامية في الشرق [115].

---

[110] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٦٨

[111] التوسيط هو أكثر وسائل التعذيب انتشارا في العصر المملوكي، و يبدو أن السبب في ذلك يرجع إلى كونه قد حل محل قطع الرقبة، و التوسيط هو ضرب المحكوم عليه بالإعدام – بعد أن يعرى من ثيابه – ضربة قوية بالسيف تحت السرة تقسم جسمه نصفين فتنهار أمعاؤه إلى الأرض – أنظر سعود العصفري، وسائل التعذيب، ص ٨٣

[112] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٧٠ – ٢٧٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٤٠ - ٥٤٣

[113] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٥٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٨٦ – ٢٨٧، ٣٠٢؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٣٣

[114] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٤، ص ٢٥١؛ الذهبي، من ذيول العبر، ج ٦، ص ٢٩٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٣٠٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٥٣؛ تاريخ الخلفاء، ج ١، ص ٥٠١

[115] ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١٤٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٣٠٦

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

كما شهدت تلك السنة أيضا وفاة شيخون متأثرا بجراحه بعد أن وثب عليه أحد المماليك و ضربه بالسيف ثلاث ضربات أصابت وجهه و رأسه و ذراعه. و على الرغم من عدم ضلوع الناصر حسن بهذه المؤامرة إلا أن موت شيخون قد خف عن السلطان أشياء كثيرة فإنه كان ثقيل الوطأة على السلطان إلى الغاية بحيث أن السلطان كان لا يفعل شيئا بدون مشورته [١١٦].

في هذه الأثناء عظم أمر يلبغا العمري وهو أحد أعظم أمراء الناصر حسن و خاصكيته حتى صار هو المشار إليه في الدولة فضاق به السلطان وثقلت وطأته عليه. و قد اغتنم بعض الأمراء هذه الظروف ليرموا الفتن بين السلطان و بين يلبغا وصار السلطان يتحين الفرصة للقبض على يلبغا [١١٧].

و اتفق أن خرج السلطان إلى الصيد في شهر جمادي الأولى من سنة ٧٦٢ / مارس ١٣٦١، وكان بصحبته يلبغا و أمرائه، فأراد السلطان القبض على يلبغا الذي تنبه إلى نية السلطان فأعد له كمين و خرج إليه بمن معه و قاتله فانكسر السلطان لقلة من كان معه من المماليك و فر إلى القلعة ليلة الأربعاء الموافق التاسع من الشهر نفسه و تبعه يلبغا إلى القلعة. و عندما تأكد للناصر حسن غلبه من مملوكه يلبغا فإنه حاول الفرار قبل أن يطلع النهار هو و أيدمر الدواداري بعد أن تنكرا في زى أعرابيين ليتوجها إلى الشام ونزلا من القلعة فلقيهما بعض المماليك و أمسكوهما وأحضروهما إلى بيت الأستادار شرف الدين بن موسى الأزكشي الذي حملهما إلى يلبغا الذي قتلهما في الحال قبل طلوع الشمس[١١٨].

وفي روايات أخرى قيل أن السلطان حسن قد خنق و رميت جثته في البحر، و قيل أن يلبغا عاقبه أشد العقوبة حتى مات، ثم دفنه في مصطبته التي كان يركب عليها بداره التي بالكبش، بل و قيل أيضا أنه دفنه في بعض الكيمان بمصر العتيقة و أخفى قبره عن الناس[١١٩].

وهكذا انتهت سلطنة الناصر حسن الثانية و كانت مدة حكمه ست سنين و سبعة أشهر و سبعة أيام وتولى من بعده ابن أخيه الملك المنصور محمد بن المظفر حاجي بن الناصر[١٢٠].

---

[١١٦] ابن كثير، البداية و النهاية، ج ١٤، ص ٢٥٧ - ٢٥٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص٣٠٥

[١١٧] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٣١١

[١١٨] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٥١٦؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١٤٨؛ المقريزي، السلوك، ج ١/٣، ص ٦٠ – ٦١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٣١١ – ٣١٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢١٢؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٢٣

[١١٩] المقريزي، السلوك، ج ١/٣/ ص ٦٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٥٧٧

[١٢٠] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣ – ٤؛ السخاوي، التحفة اللطيفة، ج ١، ص ٤٤٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٥٨٠ - ٥٨١

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

و جدير بالذكر أن أمر الأتابك يلبغا كان قد استفحل خلال سلطنة الملك المنصور محمد بصورة كبيرة و أصبح هو المتصرف في كافة أمور المملكة يمنح و يمنع، يعين ويعزل و الملك المنصور ليس له من السلطنة إلا الاسم فقط، إلى أن وقعت الوحشة بينه و بين السلطان في رجب سنة ٧٦٤ / أبريل ١٣٦٣ بسبب " إنه انهمك على شرب الخمور و سماع الآلات و الزمور و اشتغل بذلك عن أمور المملكة و صار يحتجب عن الناس في المحاكمات فضاعت حقوق المسلمين و لم يجدوا لهم من ناصر و لا معين " [١٢١].

و في شهر شعبان من نفس السنة اتفق الأمراء على خلعه و ذلك لما أشيع عنه من أمور شنيعة منها أنه " كان يدخل بين نساء الأمراء و يمزح معهن و أنه كان يعمل مكاريا للجواري و يركبهن و يجري هو وراء الحمار بالحوش السلطاني و أنه يفسق في حريم الناس و يخل بالصلوات و انه يجلس على كرسي الملك جنبا و أشياء غير ذلك " ، فقرر الأمراء خلعه و كان ذلك يوم الثلاثاء ١٥ شعبان ٧٦٤ / مايو ١٣٦٣ و حبسوه في الدور السلطانية و وكلوا به جماعة من الخدام يحفظونه وولوا بدلا منه ابن عمه الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر محمد[١٢٢].

و قد شهدت هذه الفترة مقتل الأتابك يلبغا العمري في شهر ربيع الآخر من سنة ٧٦٨ / ديسمبر ١٣٦٦[١٢٣]، بعد سنوات طويلة من الاستبداد و من الانفراد بتدبير شئون المملكة، مما كان له أكبر الأثر في تغيير سياسة السلطان.

و في سنة ٧٦٩ / ١٣٦٧، قوي أمر الملك الأشرف في السلطنة و صار تدبير ملكه إليه، يعزل من يشاء و يولي من يشاء من غير مشورة الأمراء و صار في الملك من غير منازع و لا معاند وحسنت سيرته و أحبته الرعية إلى الغاية [١٢٤].

و في سنة ٧٧٤ / ١٣٧٢، استقر الأمير ألجاي اليوسفي أتابكا للعساكر فعظم قدره من كونه أيضا زوج أم السلطان وبذلك زاد أمره و طال في المملكة[١٢٥]. و بعد وفاة خوند بركة، أم السلطان، وقع كلام بين السلطان و ألجاي اليوسفي بسبب كلام عن التركة حتى وصلت الأمور إلى حد خروج ألجاي عن طاعة السلطان و حدوث الوقيعة بينهما [١٢٦].

---

[١٢١] ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٥٩٢؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢١٢

[١٢٢] الذهبي، من ذيول العبر، ج ٦، ص ٣٥٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٦ – ٧، ٢٤؛ القلقشندي، مآثر الإنافة، ج٢، ص ١٧٤؛ السخاوي، التحفة اللطيفة، ج ١، ص ٤٤٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٥٩٢ – ٥٩٣؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٧، ص ١٠

[١٢٣] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٦ – ٤٠؛ ٩٨

[١٢٤] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٥٣

[١٢٥] المقريزي، السلوك، ج ١/٣، ص ٢٠٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٥٧ - ٥٨

[١٢٦] المقريزي، السلوك، ج ١/٣، ص ٢١٠ – ٢١٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٥٩ - ٦٠

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

و في شهر ذي القعدة من سنة ٧٧٨ / مارس ١٣٧٧ وبينما السلطان في الحجاز، اتفق طشتمر اللفاف و قرطاي الطازي و أسندمر و أينبك البدري مع جماعة من مماليك الأسياد أولاد السلطان وجماعة من مماليك الأمراء المسافرين صحبة السلطان في الحجاز، و لبسوا آلة الحرب و طلعوا إلى القلعة يبغون أمير علي ابن السلطان فرفض زمام الدار و اللالا تسليمه إليهم، فذكروا لهم أن السلطان قد مات و أنهم إنما يريدون أن يتسلطن ابنه علي فرفضا مرة أخرى فما كان منهم إلا أن أجبروهما على إحضار الأمير علي ثم أركبوه على بعض خيولهم و توجهوا به إلى الإيوان الكبير و أجلسوه على تخت الملك و لقبوه بالملك المنصور و نادوا باسمه في القاهرة [١٢٧].

و كانت قد أشيعت في هذه الأثناء بعض الأخبار عن انكسار السلطان أمام مماليكه الذين مازالوا يطلبون النفقات و العليق فراح يماطلهم، فما كان منهم إلا أن قرروا الخروج عليه و كانت الوقعة التي انتهت بانكسار السلطان و هروبه[١٢٨].

و الحقيقة أن الملك الأشرف كان قد هرب إلى القاهرة و اختفى في البداية عند بلبغا الناصري ولكنه لم يأمن على نفسه فتوجه إلى بيت امرأة تدعى آمنة (قيل أنها مرضعة السلطان). و قبل أن يمر اليوم، أتت سيدة إلي الأمراء الذين كانوا قد أثاروا الفتنة و أخبرتهم بمكان السلطان، فقام الأمراء من فورهم و اتجهوا إلى بيت المذكورة آمنة و كسروه، فهرب السلطان و اختفي في باذاهنج[١٢٩] فطلعوا فوجدوه في الباذهنج ، وعليه قماش النساء فمسكوه و ألبسوه عدة الحرب وذهبوا به إلى قلعة الجبل حيث تسلمه الأمير أينبك البدري.
و في اليوم التالي الموافق الاثنين ٥ ذو القعدة ٧٧٨ / مارس ١٣٧٧، أدخلوا عليه أحد مماليك ألجاي اليوسفي و يسمى جركس، كان يكرهه كونه كان سببا في موت أستاذه، فخنقه بوتر ثم وضعه في قفة و أثنى ظهره نصفين حتى كسره و خيطوا على القفة و رموه في بئر عدة أيام إلى أن ظهرت رائحته، فأخذه بعض طواشيه و دفنوه عند كيمان السيدة نفيسة، ثم نقل بعد ذلك إلى تربة أمه التي بمدرستها [١٣٠].

---

[١٢٧] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٧٢ – ٧٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ٢، ص ١٧٤ – ١٧٥؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٣٥

[١٢٨] المقريزي، السلوك، ج ٣/١، ص ٢٧٩ – ٢٨٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٧٣ - ٧٤

[١٢٩] عرف الباذاهنج في العمارة الإسلامية بالملقف أو الشخشيخة و له عدة فتحات تعرف بالأبواب لتمرير أشعة الشمس الدافئة شتاء و استقبال النسيم أو الهواء البارد صيفا و كانت هذه الأبواب ذات فتحات متحركة يمكن التحكم في فتحها و عليها شبكات من النحاس لحمايتها و كان أحيانا على هيئة حجرة تعلوها فتحة للتهوية و الإضاءة، انظر عاصم رزق، معجم مصطلحات العمارة و الفنون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٣٠

[١٣٠] المقريزي، السلوك، ج ٣/١، ص ٢٨١ – ٢٨٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٧٥ – ٧٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ٢، ص ١٧٧ – ١٨١ – و هي مدرسة أم السلطان شعبان، تقع خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل يعرف خطها الآن بالتبانة، موضعها كان قديما مقبرة لأهل القاهرة أنشأتها السيدة الجليلة الكبرى بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين في سنة ٧٧١ / ١٣٦٩، و عملت بها درسا للشافعية و درسا للحنفية و على بابها حوض ماء للسبيل و هي من المدارس الجليلة و فيها دفن إبنها الملك الأشرف بعد قتله – المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ٣٩٩ – 399 Abouseif, Islamic Architecture, p 129 - 131

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

وهكذا انتهت سلطنة الملك الأشرف شعبان و كانت مدة حكمه أربع عشرة سنة و شهرين وعشرين يوما و تولى من بعده ابنه الملك المنصور علي الذي توفي سنة ٧٨٣ / ١٣٨١ ثم تسلطن من بعده الصالح حاجي الذي كان عمره حينئذ نحو تسع سنين و كان برقوق العثماني (الجركسي الأصل) أتابكه[١٣١].

و الحقيقة أنه كان في استطاعة برقوق أن يلي الحكم مباشرة بعد وفاة الملك المنصور علي و لكنه كان على درجة عالية من الحنكة جعلته يدرك أن الفرصة المواتية لم تحن بعد، خاصة أنه كان لديه العديد من المعارضين من الأمراء الكبار الذين لم يرضوا بفكرة تسلطن برقوق و قالوا " لا نرضى أن يتسلطن علينا مملوك يلبغا "[١٣٢].

لذلك تظاهر برقوق بالزهد في الحكم، فجمع الأمراء الكبار و القضاة و الخليفة و تكلم معهم في سلطنة بعض أولاد الأشرف شعبان حسبما تقتضيه المصلحة، فوقع اختيارهم على أمير حاج لأنه كان أكبرهم و استمر برقوق على عادته في التكلم في الدولة[١٣٣].

وقد حفلت هذه الفترة بعدد من المؤامرات التي استهدفت برقوق، و لكنه كان قادرا في كل مرة على اكتشاف الخطر قبل وقوعه و أيضا التخلص من زعماء المؤامرة و المشاركين فيها سواء بالسجن أو بالنفي فأصبح أكثر قوة عن ذي قبل بعدما تخلص من غالبية معارضيه[١٣٤].

على أثر هذه المؤامرات بات برقوق يحترز على نفسه من مماليكه و غيرهم فأشار عليه بعض خشداشيته أن يتسلطن، فرفض في بادئ الأمر خشية أن يثير عليه أكابر الأمراء، فركب سودون الفخري حاجب الحجاب و دار على الأمراء سرا حتى استرضاهم و لا زال بهم حتى كلموا برقوق في ذلك و أنهم يضمنون له أصحابهم من أعيان النواب و الأمراء في البلاد الشامية[١٣٥].

على الجانب الأخر، فإن صغر سن السلطان القائم، و حاجة البلاد إلى سلطان قوي، تجتمع فيه الكلمة و يستطيع القضاء على الاضطرابات في الداخل و يذود عن البلاد في الخارج كانا الذريعة الأساسية التي استند إليها برقوق و مماليكه لخلع الصالح حاجي[١٣٦].

---

[١٣١] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص ٢٠٦ – ٢٠٧؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٣٩

[١٣٢] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٠٧

[١٣٣] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٠٧ - ٢٠٨

[١٣٤] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢١٠ - ٢١٤

[١٣٥] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢١٥

[١٣٦] المقريزي، السلوك، ج ٢/٣، ص ٤٧٤ - ٤٧٥

ISSN: 1997-163X
Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

و في يوم الأربعاء ١٩ رمضان ٧٨٤ / نوفمبر ١٣٨٢ طلع بعض الأمراء إلى السلطان الملك الصالح أمير حاج فأخذوه من الدهيشة و أدخلوه إلى دور الحرم عند أخوته وخلعوه من السلطنة[١٣٧].

و هكذا انتهت سلطنة الملك الصالح حاجي و كانت مدة حكمه سنة واحدة و ستة أشهر و ستة وعشرين يوما وبذلك زال الملك من دولة بني قلاوون بعد أن حكموا حوالي مائة سنة و ثلاث سنين.

ثانيا : عصر المماليك الجراكسة:

رأينا فيما سبق كيف انتهي عصر المماليك البحرية على يد برقوق، الذي جلس على تخت السلطنة في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ / نوفمبر ١٣٨٢[١٣٨]، ليبدأ عصر جديد هو عصر المماليك الجراكسة حيث أصبحوا عماد الدولة المملوكية الثانية[١٣٩].

و قد حكم برقوق علي فترتين تخللهما عودة الصالح حاجي إلى الحكم مرة أخرى حتى نجح برقوق في استرداد عرشه مرة ثانية حكم خلالها حوالي تسعة أعوام إلى أن توفي يوم الجمعة ١٥ شوال ٨٠١ / يونيو ١٣٩٩ و تولي من بعده ابنه الناصر زين الدين أبو السعادات فرج و عمره حوالي العشرة أعوام، و صار الأتابك أيتمش مدبرا للملكة[١٤٠].

و قد شهدت هذه الفترة عددا كبيرا من الأحداث الجسام و إن كان أهمها على الإطلاق ورود الأخبار في شهر المحرم ٨٠٣ / أغسطس ١٤٠٠ باجتياح تيمور لنك لبلاد الشام، فخرج الناصر فرج إلى دمشق لملاقاته، و حين أدرك السلطان حرج موقفه في الشام و خشي على نفسه فعاد إلى القاهرة و ترك جيشه يلقى أسوأ مصير على يد تيمور لنك قرب حلب[١٤١].

كما حفلت هذه الفترة كذلك بوقوع الكثير من الفتن بين الأمراء الكبار و السلطان حتى وصل الأمر إلى حد القتال بينهما وبخاصة في شهر ربيع الأول ٨٠٨ / أغسطس - سبتمبر ١٤٠٥، حيث تخبطت الأحوال بين السلطان و بين جماعة من المماليك الجراكسة و سألوا السلطان أن يقبض على جماعة من الأمراء و هم تغري بردي و دمرداش و أرغون لأنهم من جنس الروم، مخافة أن

---

[١٣٧] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢١٥؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٣٦

[١٣٨] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ؛ القلقشندي، مآثر الإنافة، ج ٢، ص ١٨٥؛ السخاوي، التحفة اللطيفة، ج ١، ص ٢١٢

[١٣٩] أحمد عبد الرازق، الجيش المصري، ص ١٨

[١٤٠] الصيرفي، نزهة النفوس و الأبدان، ج ١، ص ٤٩٥؛ المقريزي، السلوك، ج ٣/٢، ص ٩٣٦ – ٩٣٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٦٨، ١٧١؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٤٢؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٧، ص ١١٢؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج ٢، ص ٢٦

[١٤١] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢١٨ – ٢٢١، ٢٣٥ – ٢٣٧؛ السخاوي، الضوء اللامع في أهل القرن التاسع، بيروت، ج٣، ص ٤٨؛ ج ٦، ص ٢٤٩؛ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، بيروت، ١٣٨٨ / ١٩٦٨، ج ٢، ص ٥٢١

ISSN: 1997-163X
Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

يتقدموا عليهم و تقوي شوكتهم، فأرادوا من السلطان إبعادهم و لكنه رفض مما أدي إلى تفاقم المشاكل و عمت الفوضى القاهرة [١٤٢].

فلما كان وقت الظهر من يوم الأحد ٢٥ ربيع الأول ٨٠٨ / سبتمبر ١٤٠٥ فقد الناصر فرج من قلعة الجبل و لم يعرف له خبر. و تحدثنا المصادر التاريخية عن سبب تركه السلطنة أنه كان في النوروز قد جلس مع جماعة من الأمراء و الخاصكية مماليك أبيه و شرب معهم حتى سكر ثم ألقى نفسه في فسقية فتبعه جماعة و القوا نفسهم معه في الماء وصار السلطان يسبح معهم و يمازحهم و قد خلع عنه الوقار فجاء من خلفه أزبك الإبراهيمي و قيل أزبك الأشقر و أغمسه في الماء كأنه يمازحه حتى قبض عليه و غرقه في الماء حتى كادت روحه تزهق ففطن به بعض مماليك أبيه من الروم فخلصه من الماء و قد أشرف على الموت. ثم عرف السلطان جماعة من كبار أمراء الجراكسة بذلك فلم يلتفتوا لقوله و قالوا أنه كان يريد مباسطته ليس إلا، عند ذلك تيقن الناصر فرج أنهم يريدون قتله فلم يجد بدا من أن ينجو بحياته و يفر [١٤٣].
فلما بلغ الأمراء هروب السلطان، اجتمعوا في باب السلسلة وخلعوا الملك الناصر من السلطنة بحضور الخليفة و القضاة وولوا بدلا منه أخاه المنصور عبد العزيز [١٤٤].

عاش السلطان الصغير تحت كنف أمه و مدبر مملكته القاضي سعد الدين إبراهيم بن غراب وليس له من السلطنة سوى الاسم فقط، و كانت أمه كثيرة التخوف عليه من أخيه الناصر فرج حتى أنها امتنعت عن سلطنته و حجبته عن الأمراء فما كان منهم إلا أن أخذوه بالحيلة [١٤٥].

تجددت الخلافات مرة أخرى بين الأمراء الكبار الذين انقسموا إلى طائفتين: طائفة تتبع يشبك الشعباني الدوادار الكبير و طائفة تتبع الأتابك بيبرس الذي عظم أمره و علا خلال هذه الفترة بصورة كبيرة، فغز ذلك على يشبك و حاشيته و ندموا على ما فعلوه مع الناصر فرج و تمنوا لو يعرفوا مكانه ليعود مرة ثانية إلى العرش. و بينما هم في همهم، أخبرهم ابن غراب أنه مقيم عنده في بيته، فسر يشبك لذلك سرورا كبيرا و أخذ من حينه يدبر لظهور الناصر فرج و عودته إلى الملك و انتشرت الأقاويل بين الناس في أمر الملك الناصر و عودته إلى الملك [١٤٦].

---

[١٤٢] المقريزي، السلوك، ج ٣/٣، ص ١١٧٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٣٢٥ - ٣٢٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ٢، ص ٧٣١

[١٤٣] المقريزي، السلوك، ج ٣/٣، ص ١١٧٦ – ١١٧٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٣٢٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ٢، ص ٧٣٣

[١٤٤] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ٢، ص ٧٣٤؛ القلقشندي، مآثر الإنافة، ج ٢، ص ١٩٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج ٦، ص ١٦٨؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٤٣؛ العليمي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٩٥؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج ٢، ص ٢٦

[١٤٥] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٣، ص ٤٢

[١٤٦] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٣، ص ٤٣ – ٤٤؛ السخاوي، الضوء اللامع ، ج ١، ص ٦٦؛ ج ١٠، ص ٢٧٨

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

و في يوم الجمعة ٤ جمادي الآخر ٨٠٨ / نوفمبر ١٤٠٥، ظهر الملك الناصر فرج الذي لبس آلة الحرب، ووقع القتال بين الأمراء الذين انقسموا فريقين: فريق مع الناصر فرج و على رأسه يشبك الشعباني و فريق مع الملك المنصور و على رأسه الأتابك بيبرس، الذي انكسر شر كسرة. على أثر ذلك صعد الناصر فرج إلى القلعة في صباح يوم السبت ٥ جمادي الآخر ٨٠٨ / نوفمبر ١٤٠٥ و طلب أخاه الملك المنصور عبد العزيز و طيب خاطره و أرسله إلى أمه في الدور السلطانية ليقيم بدور الحرم محتفظا به [١٤٧].

و الحقيقة أن الناصر فرج قد قضى بقية عهده في محاولات مستمرة لفرض الهدوء و الاستقرار وبخاصة على بلاد الشام التي صارت هي الأخرى مسرحا للفتن و المنافسات بين الأمراء الكبار وعلى رأسهم الأميرين شيخ و نوروز و اللذين شهدت علاقتهما ببعضهما البعض حالات من الوفاق و الصلح ثم حروب يطول شرحها ثم الصلح من جديد [١٤٨]، حتى قرر الأميران إظهار العصيان و الخروج عن طاعة السلطان و كان ذلك في شهر ربيع الأول من سنة ٨١٤ / يونيو ١٤١١ [١٤٩].

و في شهر المحرم من سنة ٨١٥ / مايو ١٤١٢، خرج السلطان من دمشق (التي كان قد وصل إليها قبل عدة أيام) لمحاربة الأميرين و تبعهم حتى نزلوا باللجون فساق خلفهم و هو غارق في سكره لا يعي، فأتعب العسكر من شدة السوق، و تخلف عنه نحو النصف منهم، ثم راح باقي الأمراء و العسكر يتسحبون من عنده و يتوجهون إلى شيخ و نوروز، حتى لم يبق معه سوى نفر قليل، و ظهرت عليه علامات الغلب. فلما كان وقت الغروب، هرب من كان بقي مع السلطان، فلما لبث أن ولى هو الآخر هاربا و هو مهزوم و توجه إلى الشام [١٥٠].

على أثر هذه الأحداث، اجتمع الأمراء يوم الجمعة ٢٤ محرم ٨١٥ / مايو ١٤١٢، و شرعوا في كتابة محضر بأفعال الملك الناصر التي توجب خلعه من الملك بل و سفك دمه و إقامة الخليفة المستعين بالله في السلطنة [١٥١].

و تجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أن المماليك قد قاسوا الأمرين من أفعال الناصر فرج إذ يجمع المؤرخون على أنه كان يفرط في السكر حتى منتصف الليل ثم يخرج في الحوش و يعرضوا عليه المماليك و هم في جنازير ثم يختار أحدهم ليقدموه ثم يبطحوه على الأرض فيذبحه بيده مثل

---

١٤٧ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٣، ص ٤٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ٢، ص ٧٤٠

١٤٨ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٣، ص ٦٢ – ٧٦، ٩٩ – ١٠٠

١٤٩ المقريزي، السلوك، ج ٤/١، ص ١٧٩؛ ساين تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٣، ص ١٢٤، ١٢٧؛ القلقشندي، مآثر الإنافة، ج ٢، ص ٢٠٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ٢، ص ٨١٢

١٥٠ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ٢، ص ٨١٨

١٥١ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٣، ص ١٤٦؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج ١، ص ٥٠٥ – ٥٠٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج. ١، ٢، ص ٨١٩؛ محمد فريد، تاريخ الدولة العلية، ج ١، ص ٩١

ISSN: 1997-163X
Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

الخروف ثم يدوس على وجهه برجله و يبول عليه' و كان يذبح في كل ليلة حسبما يختار من مماليك أبيه ثم يلقيهم من سور القلعة، فإذا طلع النهار يلقونهم في بئر معطلة و هكذا حتى وصل عدد من قتلهم من مماليك أبيه حوالي ألفي مملوك [١٥٢].

أما الملك الناصر، فإنه لما تيقن له أنه هالك لا محالة، فقد اتجه إلى الأمير شيخ و قد اصطحب أولاده معه، فما كان من شيخ إلا أن أمر بتقييده و سجنه بقلعة دمشق [١٥٣].

وعن كيفية قتله، فقد ذكر الصيرفي أنه اختلف فيها على أقوال فمن قائل "أنهم جهزوا إليه فداوية وأرادوا قتله فضربهم مرارا فاجتمعوا عليه و خنقوه فمات" و من قائل "إن الفداوي لما دخل عليه غيب عقله ثم مسك محاشمه فقضي نحبه" [١٥٤].

بينما ذكر المقريزي و ابن تغري بردي أنه في ليلة السبت ١٦ صفر دخل عليه ثلاثة من الأمراء و معهم رجلان من المشاعلية " فعندما رآهم الملك الناصر قام إليهم فزعا و عرف فيما جاءوا ودافع عن نفسه و ضربه أحد الرجلين بالمدورة صرعه ثم قام الرجل هو و رفيقه و مشوا عليه وبأيديهم السكاكين و لا زالوا يضربونه بالسكاكين و هو يعاركهم بيديه و ليس عنده ما يدفع عن نفسه به حتى صرعاه بعدما أثخنا جراحه في خمس مواضع من بدنه و تقدم إليه بعض صبيان المشاعلية فخنقه و قام عليه فتحرك الملك الناصر فعاد إليه و خنقه ثانيا حتى قوى عنده أنه مات فتحرك فعاد إليه ثالثا و خنقه و فرى أوداجه بخنجر كان معه و سلبه ما عليه من الثياب ثم سحب برجليه حتى ألقي على مزبلة مرتفعة من الأرض تحت السماء و هو عاري البدن يستر عورته وبعض فخذيه سراويله و عيناه مفتوحتان و الناس تمر به ما بين أمير و فقير و مملوك و حر و قد صرف الله قلوبهم عن دفنه و مواراته و بقيت الغلمان و العبيد و الأوباش تلعب بلحيته و بدنه [١٥٥]. وظل الجثمان في موضعه لمدة يومين و قيل ثلاثا حتى حمله بعض أهل دمشق و غسلوه و كفنوه وتم دفنه بمقبرة باب الفراديس احتسابا لله تعالى و لم يكن له جنازة مشهودة [١٥٦].

وهكذا انتهت سلطنة الناصر فرج بهذه الصورة المأساوية بعد أن أمضى سنوات حكمه في السكر وفي الإساءة إلى مماليك أبيه فجاءت نهايته من نفس جزاء عمله.

---

[١٥٢] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ٢، ص ٨٢٠

[١٥٣] القلقشندي، مآثر الإنافة، ج ٢، ص ٢٠٥

[١٥٤] الصيرفي، نزهة النفوس و الأبدان، ج ٢، ص ٣٠٩ - ٣١٠

[١٥٥] المقريزي، السلوك، ج ١/٤، ص ٢٢٣ – ٢٢٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٣، ص ١٤٧ – ١٤٨؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٤٣؛ بدران، مذامة الأطلال، تحقيق زهير الشاويش، بيروت، ١٩٨٥، ج ١، ص ٣٤٠

[١٥٦] المقريزي، السلوك، ج ١/٤، ص ٢٢٤ – ٢٢٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٣، ص ١٤٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ٢، ص ٨٢٠

ISSN: 1997-163X
Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

و ننتقل إلي عصر السلطان قايتباي[١٥٧] ، حيث ساءت الأحوال كثيرا في السنوات الأخيرة من حكمه، إذ انتشر وباء الطاعون بصورة خطيرة سنة ٨٩٧ / ١٤٩٢، فكان يحصد أكثر من عشرة وألاف نفس كل يوم، كذلك توفيت أعداد كبيرة من المماليك، و زاد الموقف سوءا قلة الأقوات وانخفاض النيل و انتشار طاعون المواشي، كما ضاق الناس من الغلاء و زيادة الضرائب المكوس التي فرضت عليهم [١٥٨].

على الجانب الآخر فقد ثارت فتنة كبيرة بين المماليك الجلبان في شهر ذي القعدة من سنة ٩٠١ / يوليو ١٤٩٦، حتى وصل بهم الحال إلى حد محاولة قتل السلطان، الذي مرض بعد ذلك مباشرة ولزم الفراش [١٥٩]. و في يوم السبت ٢٦ منه، اجتمع الأمراء و العسكر و الخليفة و القضاة الأربعة، ليتكلموا في خلع الأشرف قايتباي (بحكم أنه قد أشرف على الموت) و تولية ابنه الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد بدلا منه، فبايعه الخليفة و أشهدوا عليه القضاة، و قد جري ذلك كله و والأشرف قايتباي في نزعة الموت لا يدري بشيء مما جرى [١٦٠].

و بعد أن تمت المبايعة للسلطان الصغير الذي كان له من العمر نحو أربعة عشر عاما و أشهر، أخلع على الأمير قانصوه خمسمائة و أقره في الأتابكية [١٦١]. و قد استطاع قانصوه أن يقضي علي العديد من الفتن التي ثارت بين الأمراء خاصة فيما يتعلق بالوصاية على السلطان الصغير حتى نجح في الاستبداد بالسلطة بل والأكثر من ذلك، فقد استطاع أن يخلع السلطان الناصر من السلطنة في جمادي الأولى ٩٠٢ / يناير ١٤٩٧ ليتولى السلطنة بدلاً منه[١٦٢].

لم يدم الحال طويلا لقانصوه خمسمائة، إذ سرعان ما تصدى له قانصوه من قانصوه، خال السلطان هو و جماعة من الجلبان و قاتلوه قتالا عنيفا حتى انتهى به الحال إلى إصابته بسهم نشاب في وجهه فأغمى عليه و غاب عن الوعي فأركبوه على حمار و هو مغشي عليه ثم اختفى بعد ذلك ليرجع الملك الناصر للسلطنة مرة أخرى و يلقب بالملك الأشرف على لقب أبيه [١٦٣].

---

[١٥٧] من المثير للدهشة بل و العجب أنه ما بين سنة ٨١٥/ ١٤١٢ و سنة ٩٠٤/ ١٤٩٨ لم تذكر لنا المصادر التاريخية مقتل أي من سلاطين المماليك (الذين إما توفوا وفاة طبيعية أو تم خلعهم) و ذلك على الرغم من وجود الكثير من الفتن و الاضطرابات التي شهدتها هذه الفترة و هو ما سوف نتطرق له لاحقا في سياق تحليلنا لنتائج البحث

[١٥٨] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٨٧ – ٢٩٢، ٣٣١ - ٣٣٢

[١٥٩] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٢٢ - ٣٢٣

[١٦٠] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٢٤، ٣٣٣؛ محمد فريد، تاريخ الدولة العلية، ج ١، ص ٩٥

[١٦١] البصروي، تاريخ البصروي، تحقيق أكرم حسن العلبي، دمشق، ١٤٠٨ / ١٩٨٧، ج ١، ص ١٨٧، ١٨٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٣٣

[١٦٢] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٣٥ - ٣٤٣

[١٦٣] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٤١ – ٣٤٤، ٣٥١

ISSN: 1997-163X
Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

و الحقيقة أن أيام الناصر كانت كلها فتن و حروب بين طوائف المماليك، كما شهدت تزايد شر المماليك الجلبان الذين عاثوا فسادا في البلاد و العباد، فضاق الأمراء كثيرا باستبدادهم و خضوع السلطان لهم، فتغيرت خواطرهم عليه و أضمروا له السوء و صاروا يتحينون الفرصة المواتية لقتله[١٦٤] خاصة و أنه كان كما ذكر ابن إياس " جاهلا عسوفا، جريء اليد، سفاكا للدماء، سيء التدبير، كثير العثرة للأوباش، و سار في المملكة أقبح سيرة و لم يقع من أبناء الملوك من السواقط ما وقع منه في سائر أفعاله حتى جاوز في ذلك الحد "[١٦٥].

و في يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول ٩٠٤ / أكتوبر ١٤٩٨، نزل السلطان من القلعة و اتجه نحو بر الجزيرة، و بقي هناك ثلاثة أيام و كان بصحبته أولاد عمه و جماعة من الخاصكية، حيث أمضوا الوقت في " اللهو و الخلاعة و الإنشراح "[١٦٦].

و في طريق العودة، و عند مرور السلطان على الطالبية، كان الأمير طومان باي (الدوادار الثاني) موجودا هناك فخرج إلى السلطان (الذي لم يكن بصحبته سوى أولاد عمه و بعض السلاحدارية) و عزم عليه بإناء فيه لبن و ملعقة، فوقف السلطان ليأكلها. و" بينما هو يأكل وطومان باي ماسك لجام فرسه، فلم يشعر إلا و قد خرج عليه كمين من الخيام التي هناك نحو خمسين مملوكا، و هم لابسون آلة السلاح، فاحتاطوا به و عاجلوه بالحسام قبل الكلام، فقتلوه شر قتلة و حملوا عليه أي حملة فجاءت ضربة على رقبته طارت عن جثته، فوقع عن فرسه إلى الأرض "[١٦٧]، و تقترب هذه الواقعة من واقعة قتل الأشرف خليل بن قلاوون، كما رأينا فيما سبق.

و قد ظلت جثة السلطان ملقاة على الأرض حتى ولوج الليل فحمله بعض شيوخ الطالبية و أدخلوه في المسجد و ألقوه على الحصير و هو مدرج في دمه و رأسه مشبوكة في جثته ببعض شيء ثم دفن في اليوم التالي بتربة والده الأشرف قايتباي[١٦٨].

---

[١٦٤] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٩٨ – ٣٩٩، ؛ عبد الرحمن الرافعي و سعيد عاشور، مصر في العصور الوسطى، ص ٥٢٤

[١٦٥] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٤٠٣ – و قد أسهب المؤرخون في ذكر موبقات السلطان و قبحه مع النساء الحسناوات حيث كان يهجم عليهن ليقطع دوائر فروجهن و ينظمها في خيط أعد لنظم فروج النساء، كذلك ما كان منه مع جارية أهدتها له أمه، أن أغلق عليه الباب و ربطها ثم شرع يسلخ جلدها و هي حية تصرخ و استمر إلى أن سلخها و حشا جلدها بالأثواب السندسية و خرج يظهر للناس أستاذيته في السلخ أنظر ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٨، ص ٤٢٣؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٥٩ – ٦٠

[١٦٦] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٤٠٠ - ٤٠١

[١٦٧] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٤٠١

[١٦٨] البصروي، تاريخ البصروي، ج ١، ص ٢٣٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٤٠٢ – ٤٠٣؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٦٠ – و هذه التربة كائنة بمدرسة السلطان الأشرف قايتباي التي تقع بشارع السوق بمنشية ناصر بقرافة المماليك الشرقية، شيدها السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي في سنة ٨٧٧ / ١٤٧٢ و فرغ منها في شهر رجب سنة ٨٧٩ / نوفمبر ١٤٧٤، و هي تضم مدرسة و سبيل و كتاب و تشغل مساحة ١٠٨٨ مترا مربعا و لها ثلاث واجهات. أنظر أحمد عبد الرازق، العمارة العربية، ص ٣٧٦ - ٣٨٩

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

و هكذا انتهت سلطنة الناصر محمد بن الأشرف قايتباي و تسلطن من بعده الظاهر قانصوه ثم جان بلاط [١٦٩] الذي تم خلعه ليتولى من بعده العادل أبو النصر طومان باي الأشرفي قايتباي، بتاريخ ١٨ جمادي الآخر سنة ٩٠٦ / يناير ١٥٠١ [١٧٠].

و جدير بالذكر أن العادل طومان باي كان قد لعب دورا هاما قبل ذلك في إثارة الفتنة بين الظاهر قانصوه و الأشرف جان بلاط في سنة ٩٠٥ / ١٤٩٩، إلى أن تنافرا و قدر جان بلاط على الظاهر حتى خرج من مصر و تركها له فتسلطن مكانه [١٧١].

و الحقيقة أن العادل طومان باي كان – في البداية – ذو شهامة زائدة و حرمة وافرة، بيد أنه سرعان ما تغير بعد أن ولي السلطنة و ظهرت منه أمور فاحشة و تمادي في سفك الدماء و قتل الأمراء [١٧٢].

وهكذا، كانت سلطنة العادل طومان باي – رغم قصرها – كلها شرور و فتن، حيث كانت أخرها الفتنة التي حصلت بين طوائف المماليك في أخر شهر رمضان من سنة ٩٠٦ / أبريل ١٥٠١، وكان سببها، أنه قد أشيع بين الناس أن السلطان قد عول على مسك جماعة من الأمراء يوم العيد وهم في الجامع، فعندما بلغهم ذلك قرروا الوثوب عليه، فنزل من القلعة واختفى في ليلة عيد الفطر بعد العشاء [١٧٣]، ووقع الاتفاق علي سلطنة قانصوه الغوري [١٧٤].

وظل العادل مختفيا مدة اثنين و أربعين يوما، تزايد خلالها قلق الأمراء و توجسوا منه حتى أنهم كانوا لا ينامون إلا و مماليكهم مرتدين آلة السلاح ليل نهار. و عندما طال الأمر قرروا أن يأخذوه بالحيلة، فأقنعوا بعض أخصائه الذين كانوا يجتمعون به وقت اختفائه بأن يحسنوا له الذهاب إلى بيت جاني بك الشامي الذي كان بجوار بيت الأتابكي جرباش كرد حتى يستطيع عن طريقه التسلل إلى بيت الدوادار مصرباي ليقتله [١٧٥].

و عندما وصل العادل إلي بيت جاني بك، و كان ذلك يوم الاثنين ١٣ ذو القعدة، ، مدوا له الأسمطة الحافلة، ثم أرسلوا إلي مصرباي ليخبروه بوصول العادل، الذي لم يشعر بهم إلا و قد

---

[١٦٩] المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٦٠

[١٧٠] كان طومان باي قد أعلن عصيانه على السلطان و ذهب إلى دمشق حيث اتفق مع بعض الأمراء على خلع السلطان و عمل محضرا بذلك بحضور علماء و أمراء دمشق و تسمي بالملك العادل ثم قصد مصر فوصلها في جمادي الأولي سنة ٩٠٦ / حيث حاصر جان بلاط في القلعة سبعة أيام ثم قبض عليه و أرسله إلى سجن الإسكندرية ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٤٦٤ – ٤٦٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٨، ص ٢٧؛ الدمشقي، الدارس، تحقيق إبراهيم شمس الدين، بيروت، ١٤١٠ / ١٩٨٩ ، ج ٢، ص ٢٠ – ٢١؛ محمد فريد، تاريخ الدولة العلية، ج ١، ص ٩٥ – ٩٦

[١٧١] ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٨، ص ٢٨

[١٧٢] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ١١

[١٧٣] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٤٧٦ – ٤٧٧؛ محمد فريد، تاريخ الدولة العلية، ج ١، ص ٩٦

[١٧٤] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ٢-٣؛ المكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٦١

[١٧٥] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ٩

ISSN: 1997-163X
Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

هجموا عليه، فما كان منه إلا أن " قام و هرب فتسلق من على حائط و أرمى بنفسه من أعلى الحائط فوقع على فخذه فانكسر نصفين، فأدركه شخص من مماليك الأشرف جان بلاط يقال له أرزمك فقطع رأسه، و صار كل من مماليك جان بلاط و قصروه يشتفي منه و يضربه بالسيف حتى هروه، فلما قطعوا رأسه أحضروها بين يدي مصرباي الدوادار، فوضعها في طبق من النحاس و أخرجها من بيته و المشاعلية تنادي عليه هذا جزاء من يسفك الدماء و يقتل الأمراء بغير حق، فعز ذلك على بعض الأمراء، فلما عرضت لرأسه على السلطان رسم بدفنه و أرسل معه ثوبا بعلبكيا و عشرين دينارا فأعادوا رأسه إلى جثته و غسلوه و كفنوه وصلوا عليه و دفنوه بتربته التي أنشاها بالقرب من المطعم السلطاني" [١٧٦].

و قيل أنه لما قتل العادل، تخلق أبناء خوند أم الناصر بدمه و اظهروا الفرح و السرور في ذلك اليوم، و قد كانت معذورة فيما فعلت حيث انه كان قد قتل ابنها الناصر و سجن أخاها الظاهر فانصوه و قتل زوجها الأشرف جان بلاط [١٧٧] ليكون جزاؤه من نفس نوع العمل.

و هكذا انتهت حياة السلطان العادل طومان باي هذه النهاية المأساوية بعد أن حكم مدة لا تزيد عن المائة يوم و تولى من بعده قانصوه الغوري الذي قتل في معركة مرج دابق على يد السلطان العثماني سليم الأول و جلس على تخت السلطنة من بعده ابن أخيه الملك الأشرف أبو النصر طومان باي من قانصوه الناصري في شهر رمضان سنة ٩٢٢ / أكتوبر ١٥١٦ [١٧٨].

و جدير بالذكر أنه حين ثبت موت السلطان الغوري و رجع الأمراء من الشام، كان الموقف في القاهرة يتطلب إجراءا عاجلا، فاتفق على تولية الأشرف طومان باي و لكنه ظل يمانع و يتعلل بمختلف العلل و هم يلحون في الطلب عليه حتى وافق في النهاية بعد أن حلفوا له على المصحف الشريف أنهم إذا سلطنوه لا يخامرون عليه و لا يغدرون به و لا يثيرون الفتن [١٧٩].

كان واضحا منذ البداية أن طومان باي قد ورث تركة مثقلة و تولى الحكم في ظروف لا يحسدها عليه أحد، و على الرغم من ذلك، فقد كان أقل ما يتوقعه من الأمراء المماليك، بعد أن قبل السلطنة في ظل هذه الظروف، أن يجد منهم تعاونا و أن يقفوا بجواره في مواجهة أعداء البلاد، لكنه لاقي من قبلهم الكثير من التخاذل و التراخي مما كان له أكبر الأثر في أن تتوالى انكساراتهم أمام جيوش العثمانيين [١٨٠].

---

[١٧٦] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٠
[١٧٧] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ١١
[١٧٨] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ٤ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٨، ص ١١٥؛ محمد فريد، تاريخ الدولة العلية، ج ١، ص ١٩٣
[١٧٩] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥ ، ص ١٠٣ - ١٠٤
[١٨٠] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٥٥؛ عبد الرحمن الرافعي و سعيد عاشور، مصر في العصور الوسطى، ص ٥٣٥ - ٥٣٦

ISSN: 1997-163X
Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

و بعد أن حلت الهزيمة بالمماليك في معركة الريدانية ، فر طومان باي إلى القاهرة – بعد أن قتل من الأمراء و العسكر ما لا يحصى – ليواصل المقاومة ضد سليم الذي كان قد دخل القاهرة فعلا و ملكها بقوة سيفه و دعي له على منابرها[١٨١].

و قد استمر طومان باي في مقاومته حتى رأى عين الغلب بعد أن تكاسل العسكر عن القتال وتفرق الأمراء، و استمر السلطان يقاتل بمفرده في نفر قليل من الرماة و عدد من المماليك والأمراء حتى انهزم مرة أخرى يوم السبت ٨ محرم ٩٢٣ / فبراير ١٥١٧[١٨٢].

عاث العثمانيون فسادا في البلاد على أثر هذه الهزيمة، و راحوا يهجمون على الجوامع و البيوت و يقتلون من فيها من المماليك الجراكسة و يسجنون البعض الآخر أو ينفونهم إلى اسطنبول وسط ضجيج و بكاء نسائهم و أولادهم[١٨٣].

و في شهر صفر وردت الأخبار بأن طومان باي جمع من العساكر و العربان عددا كبيرا و هو زاحف على الجيزة و كان أن وصل إلي هناك في السادس من ربيع الأول، فخرج السلطان العثماني لقتاله. و انتهى الأمر كالعادة بهزيمة المماليك و فرار طومان باي إلي تروجة بالغربية عند صديقه حسن بن مرعي – أحد مشايخ العربان – الذي خانه في نهاية الأمر بعد أن حلف له على المصحف الشريف بألا يخونه أو يغدر به و أرسل إلى السلطان سليم ليخبره بوجود طومان باي عنده، فأرسل إليه جماعة من عسكره فقبضوا عليه ووضعوه في الحديد و ساقوه إلى السلطان العثماني[١٨٤].

و بعد أن كثر القيل و القال بين الناس حول حقيقة القبض على طومان باي، حنق السلطان سليم شاه من عدم تصديق الناس، فعدى به من بولاق و شق القاهرة في يوم الاثنين ٢٢ ربيع الأول، حيث " جعل يسلم على الناس بطول الطريق حتى وصل إلى باب زويلة و هو لا يدري ما يصنع به. فلما أتى إلى باب زويلة أنزلوه من على الفرس و أرخوا له الحبال ووقفت حوله العثمانية بالسيوف، فلما تحقق أنه يشنق وقف على أقدامه على باب زويلة، و قال للناس الذين حوله: اقرءوا لي سورة الفاتحة ثلاث مرات. فبسط يده و قرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات و قرأت الناس معه، ثم قال للمشاعلي : اعمل شغلك. فلما وضعوا الخية في رقبته و رفعوا الحبل فانقطع به فسقط على عتبة باب زويلة ، و قيل انقطع به الحبل مرتين و هو يقع إلى الأرض، ثم شنقوه و هو مكشوف الرأس و على جسده شاياه جوخ أحمر و فوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار و في رجله لباس جوخ أزرق "[١٨٥].

---

١٨١ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٥١ - ١٥٣
١٨٢ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ٤ السكي، سمط النجوم، ج ٤، ص ٦٧١٥٥
١٨٣ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٥٥ - ١٦٥
١٨٤ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٦٧ - ١٧٥
١٨٥ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٧٥ - ١٧٧

ISSN: 1997-163X
Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

و قد ترك جثمان طومان باي ثلاثة أيام و هو معلق على باب زويلة حتى جافت رائحته، إلى أن أنزلوه و أحضروا له تابوتا ووضعوه فيه و دفن بالحوش الموجود خلف مدرسة السلطان الغوري (عمه)[١٨٦].

وهكذا جاءت نهاية السلطان طومان باي آخر سلاطين المماليك مخالفة للقواعد السائدة في ذلك العصر حيث كتبت كلمة النهاية هذه المرة بيد السلطان العثماني سليم الأول لا بيد المماليك مثلما جري العرف، و كانت مدة حكمه ثلاثة أشهر و أربعة عشر يوما.

[١٨٦] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٧٧؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٨، ص ١١٥؛ محمد فريد؛ تاريخ الدولة العلية، ج ١، ص ١٩٣ – و تقع هذه المدرسة بشارع المعز لدين الله بالغورية، شيدها السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري فوق أنقاض مدرسة الطواشي مختص الذي كان رأس نوبة السقاة في أيام السلطان الظاهر قانصوه أبو سعيد بعد أن قبض عليه السلطان الغوري و صادره و قرر عليه مالا له صورة فأعطاه هذه المدرسة من جملة ما قرر عليه من المال و كان بني منها بعض شيء فلما ملكها الغوري هدم ما بناه مختص ثم اوسع في بنائها و تناهي في زخرفتها و بنائها فجات في غاية الحسن و كان النتها من بنائها في ليلة عيد النحر من سنة ٩٠٨ / يونيو ١٥٠٣ – أنظر ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ٥٢ – ٥٣؛ أحمد عبد الرازق، العمارة العربية، ص ٤٠٤ – ٤١٨

١ - ثبت بأسماء السلاطين الذين تم قتلهم في العصر المملوكي البحري

رقم	اسم السلطان	تاريخ التولية	تاريخ القتل	مدة الحكم	السن عند القتل
١	المعز أيبك	ربيع الأول ٦٤٨ / يونيو ١٢٥٠	٢٣ ربيع الأول ٦٥٥ / أبريل ١٢٥٧	سبع سنين إلا أياما	٦٠ عاما
٢	شجر الدر	أخر المحرم ٦٤٨ / أبريل ١٢٥٠	٢٩ ربيع الأول ٦٥٥ / أبريل ١٢٥٧	حوالي شهرين (حين تنازلت عن العرش لأيبك)	؟
٣	المظفر قطز	١٧ ذو القعدة ٦٥٧ / نوفمبر ١٢٥٩	١٥ ذو القعدة ٦٥٨ / أكتوبر ١٢٦٠	سنة إلا يوما واحدا	؟
٤	الأشرف خليل بن قلاوون	٧ ذو القعدة ٦٨٩ / نوفمبر ١٢٩٠	١٢ محرم ٦٩٣ / ديسمبر ١٢٩٣	ثلاث سنين و شهرين و خمسة أيام	٣٠ عاما
٥	المنصور لاجين	صفر ٦٩٦ / ديسمبر ١٢٩٦	١٠ ربيع آخر ٦٩٨ / يناير ١٢٩٩	سنتين و شهرين و أيام	٦٣ عاما
٦	بيبرس الجاشنكير	٢٣ شوال ٧٠٨ / أبريل ١٣٠٩	١٦ رمضان ٧٠٩ / فبراير ١٣١٠	عشرة أشهر و أربعة و عشرين يوما	؟
٧	الكامل شعبان	٤ ربيع الآخر ٧٤٦ / أغسطس ١٣٤٥	٣ جمادي الآخر ٧٤٧ / سبتمبر ١٣٤٦	سنة واحدة و ثمانية وخمسين يوما	؟
٨	المظفر حاجي الأول	أول جمادي الآخر ٧٤٧ / سبتمبر ١٣٤٦	١٢ رمضان ٧٤٨ / ديسمبر ١٣٤٧	سنة واحدة و ثلاثة أشهر و أربعة عشر يوما	١٦ عاما
٩	الناصر حسن (السلطنة الأولى و الثانية)	١٤ رمضان ٧٤٨ / ديسمبر ١٣٤٧	جمادي الأولى ٧٦٢ / مارس ١٣٦١	عشر سنوات و أربع شهور	٢٦ عاما
١٠	الأشرف شعبان الثاني	١٥ شعبان ٧٦٤ / مايو ١٣٦٣	٥ ذو القعدة ٧٧٨ / مارس ١٣٧٧	أربعة عشر سنة وشهرين وعشرين يوما	٢٤ عاما

ISSN: 1997-163X
Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

٢ - ثبت بأسماء السلاطين الذين تم قتلهم في العصر المملوكي الجركسي

رقم	اسم السلطان	تاريخ التولية	تاريخ القتل	مدة الحكم	السن عند العزل
١	الناصر فرج بن برقوق (السلطنة الأولى و الثانية)	١٥ شوال ٨٠١ / يونيو ١٣٩٩	١٦ صفر ٨١٥ / مايو ١٤١٢	حوالي ثلاثة عشر عاما و شهرين	٢٤ عاما
٢	الملك المنصور محمد الرابع	٢٦ ذو القعدة ٩٠١ / يوليو ١٤٩٦	ربيع الأول ٩٠٤ / أكتوبر ١٤٩٨	عامان و ثلاثة أشهر و عدة أيام	١٧ عاما
٣	الملك العادل طومان باي الأول	١٨ جمادي الآخر ٩٠٦ / يناير ١٥٠١	١٣ ذو القعدة ٩٠٦ / يونيو ١٥٠١	ثلاثة أشهر و اثنا عشر يوما (اختبأ منذ آخر رمضان حتى تاريخه)	أكثر من ٤٠ عاما
٤	الملك الأشرف طومان باي الثاني	رمضان ٩٢٢ / أكتوبر ١٥١٦	٢٢ ربيع الأول ٩٢٣ / أبريل ١٥١٧	ستة أشهر	٤٤ عاما

تضح لنا مما سبق أن عدد سلاطين المماليك البحرية الذين انتهت فترة حكمهم بصورة دامية وصل إلى عشرة سلاطين في حين يصل عدد سلاطين المماليك الجراكسة الذين انتهت سلطنتهم بمثل هذه الطريقة إلى أربعة سلاطين فقط.

و الحقيقة أننا نلاحظ تناقضا واضحا ما بين العددين خاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار مدة الحكم لكل فترة على حدة و كذلك عدد السلاطين الذين جلسوا على تخت السلطنة خلال هاتين الفترتين.

فقد امتد عصر المماليك البحرية ما بين ٦٤٨ – ٧٨٤ / ١٢٥٠ – ١٣٨٢، أي ما يقرب من مائة و اثنتين و ثلاثين عاما حكم خلالها خمس و عشرون سلطانا بداية من شجر الدر و حتى الصالح حاجي، مع الأخذ في الاعتبار أن الناصر محمد ابن قلاوون قد حكم على ثلاث فترات منفصلة و كذلك الناصر حسن الذي حكم خلال فترتين منفصلتين.

أما عصر المماليك الجراكسة فقد امتد ما بين ٧٨٤ – ٩٢٣ / ١٣٨٢ – ١٥١٧، أي ما يقرب من مائة و خمس و ثلاثين عاما حكم خلالها ثلاث و عشرون سلطانا بداية من الظاهر برقوق و حتى

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

الأشرف طومان باي، مع الأخذ في الاعتبار أن الظاهر برقوق وولده الناصر فرج قد حكم كلا منهما فترتين منفصلتين.

و هكذا يتضح لنا مدى التباين في عدد النهايات الدامية خلال فترتين متساويتين تقريبا في مدة الحكم و في عدد الحكام بل و في الملابسات المحيطة بكل منهما.

و الحقيقة أن هذا التباين الذي جاء مناقضا للتوقعات، يفتح الباب لعدد من التساؤلات خاصة فيما يتعلق بمدى الاستقرار الذي شهدته البلاد خلال عصر المماليك البحرية و خاصة خلال فترة حكم أسرة بني قلاوون التي حكمت البلاد ما بين ٦٧٨ – ٧٨٤ / ١٢٧٩ – ١٣٨٢ ، أي حوالي مائة وثلاثة أعوام ، حيث أنه من الثابت في التاريخ أن بيت قلاوون قد تمتع بحب الناس و احترامهم، كما حظي الناصر محمد بوجه خاص بشعبية كبيرة ظهرت جلية في حب الناس له و تمسكهم به بل و إخلاصهم له لما لمسوه (خلال فترة حكمه الثالثة) من استقرار وهدوء جعلهم بمنأى عن الفتن و الأزمات لفترة ليست بالقصيرة.

و من الثابت أيضا أن هذه الشعبية الكبيرة التي تمتع بها بيت قلاوون هي التي جعلت الناس يتمسكون بسلالة الملك الناصر محمد حتى بعد وفاته، فظل أولاده و أحفاده يحكمون البلاد طوال أربعين سنة، رغم أنه كان منهم من لا يستحق الملك لضعفه أو سو خلقه كما رأينا فيما سبق، وربما نستطيع أن نرجع ذلك إلى الهيبة التي وضعها المنصور قلاوون و ازدادت نموا في عهد ولده الناصر محمد[١٨٧].

بيد أننا لا نستطيع أن ننكر أن هذه الهيبة لم تكن في حقيقة الأمر سوى ذريعة، لجأ إليها بعض الأمراء الكبار الذين كان في استطاعتهم تولي السلطنة بعد وفاة هذا السلطان أو ذاك، ولكنهم كانوا على درجة كبيرة من الحنكة جعلتهم يدركون أن الفرصة المواتية لم تحن بعد، لاسيما إن كان لديهم من المعارضين من الأمراء الكبار من لم يرضوا بفكرة سلطنتهم ، فكانوا يتظاهرون بالزهد في الحكم، و يلجئون في تلك الحالة إلى تولية أحد أبناء السلطان المتوفى أو المخلوع، كحل مؤقت حتى تصبح الأمور مواتية ليعتلوا العرش مثلما كان الحال مع كتبغا و لاجين و بيبرس الجاشنكير و الظاهر برقوق.

و تكفي الإشارة إلى أنه في الوقت الذي حكم فيه الناصر محمد وحده أكثر من ثلاثين عاما، نجد اثنا عشر سلطانا من أبنائه و أحفاده يحكمون خلال أربعين عاما و هو ما يعطي دلالات واضحة عن مدى الاضطراب و الفوضى التي سادت خلال هذه الفترة وانعكست آثارها بصورة واضحة

[١٨٧] عبد الرحمن الرافعي و سعيد عاشور، مصر في العصور الوسطى، ص ٤٨٩ - ٤٩٠

ISSN: 1997-163X
Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

على تزايد المؤامرات و الفتن للتخلص من هؤلاء السلاطين سواء عن طريق الخلع أو القتل (حتى فيما بين الأشقاء مثلما كان الحال مع الكامل شعبان الذي اتهم بقتل أخويه كجك و يوسف كما سجن أخويه حسين و حاجي و بني عليهما جدارا ليدفنهما أحياء فما كان من حاجي بعد أن تسلطن إلا أن أمر بقتله).

و حسبنا دليلا على ذلك ما ذكره ابن خلدون بقوله: "... ثم هلك الناصر بعد أربعين و سبعمائة فطفق أمراء دولته ينصبون بنيه للملك واحدا بعد آخر مستبدين عليهم متنافسين في الملك حتى يغلب واحد منهم آخر فيقتله و يقتل سلطانه من أولاد الناصر و ينصب آخر منهم مكانه" [١٨٨].

على الجانب الآخر، فإن عصر المماليك الجراكسة قد شهد تعاقب ثلاثة و عشرين سلطانا على العرش، تسعة منهم حكموا حوالي مائة و ستة وعشرين عاما بينما حكم الأربعة عشر الآخرون تسع سنوات فقط. و يرى عدد من المؤرخين لهذه الفترة أن نجاح هؤلاء السلاطين[١٨٩] في الاحتفاظ بالعرش لفترات طويلة (و لكنها ليست بالضرورة مستقرة) ربما يرجع إلى قدرتهم في الوصول إلى أهدافهم لكبح جماح مماليكهم، عن طريق ضرب خصومهم أو طوائف المماليك بعضهم ببعض[١٩٠].

و على عكس الاعتقاد السائد عن مدى القسوة و الشراسة اللتين عرفتا عن عصر المماليك الجراكسة، و على الرغم من كون البلاد قد قاست كثيرا من المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك و ما كان يترتب عن تلك المنازعات من حوادث و قتال في الشوارع بصورة زعزعت الأمن و الاستقرار، فإننا نلاحظ أن عدد السلاطين الذين تم إقصاءهم عن العرش عن طريق الخلع يفوق عدد السلاطين الذين قتلوا حيث يصل عدد السلاطين المعزولين في ذلك العصر إلى عشرة سلاطين بينما يصل عدد هؤلاء الذين قتلوا إلى أربع فقط - كما ذكرنا من قبل، و هو ما يدعونا إلى إعادة طرح السؤال بشكل مختلف : هل كان المماليك الجراكسة بحق أكثر وحشية و دموية من سلاطين المماليك البحرية أم أن العكس هو الصحيح، خاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار وسائل القتل المختلفة لكل عصر على حدة والتي استعرضناها بالتفصيل من خلال الدراسة ؟

على أية حال، فإن الأسباب المؤدية لهذه الظاهرة عديدة ومتنوعة و يأتي في مقدمتها طبيعة نشأة المماليك أنفسهم، حيث أن معظمهم قد تم جلبه من بقاع تتسم شعوبها بالبدائية، ظلوا يصيفون بأرض و يشتون بأخرى لقلة المراعي الدائمة وقسوة المناخ، و يعانون ضيقا في العيش و نقصا

---

[١٨٨] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٧، ص ٦٩٥

[١٨٩] و هؤلاء السلاطين هم الظاهر برقوق، الناصر فرج، المؤيد شيخ، الأشرف برسباي، الظاهر جقمق، الأشرف اينال، الظاهر خشقدم، الأشرف قايتباي و قانصوه الغوري

[١٩٠] عبد الرحمن الرافعي و سعيد عاشور، مصر في العصور الوسطى، ص ٥٠٤

ISSN: 1997-163X
Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

في المواد الغذائية، لذا كان من الطبيعي في ذلك الوقت أن يبيع بعض الأهالي أولادهم و بناتهم أو يستبدلوهم بالغلال لسد جوعهم أو يغيرون على جيرانهم و يأسرون منهم ما استطاعوا للبيع في أسواق النخاسة[191]، أضف إلى ذلك الطبيعة العسكرية القاسية لنشأة هؤلاء المماليك، مما ترتب عليه في النهاية أن يتجردوا من كل مشاعر الإنسانية و يتسموا بهذه الشراسة التي جعلتهم يقتلون بدماء باردة دون أن يجفل لهم رمش.

كما لعبت غيرة النساء و كيدهن دورا هاما في واقعتي قتل المعز أيبك و شجر الدر، وكان ذلك حين أكلت الغيرة شجر الدر عندما علمت برغبة أيبك في الزواج من أخرى بعد أن ضحت بالعرش من أجله فقتلته، فما كان من زوجة أيبك الأولى – أم علي – إلا أن قتلتها انتقاما له.

كذلك انتهت حياة بعض السلاطين غدرا و بدون أسباب حقيقية أو منطقية مثلما كان الحال مع قطز الذي انتهت سلطنته غدرا بعد أن هزم التتار هزيمة نكراء لم يمنوا بها في تاريخهم.

و من بين هذه الأسباب نجد كذلك تمادى بعض السلاطين في تكبرهم و استعلائهم علي الأمراء بل و عقابهم بالسجن أو القتل بصورة مبالغ فيها في كثير من الأحيان ، الأمر الذي جعلهم يضيقون بهم ذرعا ويقررون التخلص منهم، مثلما كان الحال مع الأشرف خليل بن قلاوون و أيضا الناصر فرج بن برقوق و الناصر محمد بن قايتباي و العادل طومان باي، الذين كانوا – بالإضافة إلي ذلك – سفاكين للدماء، سيئي التدبير و كانت أفعالهم في غاية القبح و السوء.

و في بعض الأحيان كان تفضيل السلطان لطائفة بعينها من المماليك و محاباته لها على حساب الطوائف الأخرى و تفريق الرواتب و المثالات بصورة مجحفة أحد الأسباب المباشرة المؤدية لعدم رضاء الأمراء و العسكر، والتي عجلت بدورها في القضاء على السلطان مثلما كان الحال مع لاجين و مملوكه منكوتمر الذي استبد بوظائف الملك و حجب السلطان عن العامة والخاصة فقرر الأمراء التخلص من كليهما كما ذكرنا من قبل.

و من بين هذه الأسباب نذكر أيضا الانتقام الشخصي و التشفي من السلطان مثلما كان الحال مع بيبرس الجاشنكير الذي لاقى أسوأ مصير على يد الناصر محمد بن قلاوون لما لاقاه الأخير على يديه من ذل و هوان وصلت إلى حد حرمانه من طعام كان يشتهيه حين كان وصيا على عرشه في فترة حكمه الثانية.

[191] القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٥٧ – ٤٥٨؛ أحمد عبد الرازق، الجيش المصري، ص ١٣ - ١٤

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

و نذكر كذلك صغر سن بعض السلاطين بصورة لا تمكنهم من أن يحسنوا التدبير في الأوقات الصعبة، أو طيشهم و لهوهم الزائد عن الحد و الذين اتخذهما الأمراء ذريعة للتخلص من السلطان مثلما كان الحال مع الكامل شعبان بن الناصر محمد و أخيه حاجي.

وأيا كانت الأسباب، فقد كانت النتيجة في النهاية واحدة كما نقول " تعددت الأسباب و الموت واحد"، و إن كان الأوقع في مثل هذه الحالة أن نقول " تعددت الأسباب و القتل أشرس".

خلاصة القول، فإن حالة الفوضى و الاضطراب التي عاشتها مصر خلال تلك الفترة بما تخللها من مؤامرات و فتن، و كذا تلك القسوة و الوحشية اللتين عرفتا عن المماليك، قد ألقت بظلالها على شتى مناحي الحياة في ذلك العصر مما كان له شديد الأثر على زعزعة الاستقرار في البلاط السلطاني و هو ما أدى بطبيعة الحال إلى انتشار العديد من مظاهر العنف المختلفة و التي تجلت بصورة واضحة من خلال النهايات الدامية التي تعرض لها عدد ليس بالقليل من سلاطين المماليك.

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of Tourism and Hospitality

ثبت المصادر و المراجع

أولا : المصادر و المراجع العربية :

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، وزارة الثقافة – مصر، ١٩٦٣

----------، المنهل الصافي و المستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٤٢٣ / ٢٠٠٢

ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٣٨٩ / ١٩٦٩

----------، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مراقبة محمد عبد المعين ضان، حيدراباد، ١٣٩٢ / ١٩٧٢

ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، بيروت، ١٩٨٤

ابن خليكان، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، لبنان، ١٩٨٤

ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق علي محمد بن يعوض الله و عادل أحمد عبد الموجود، بيروت، ٢٠٠٠

ابن العماد،شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط و محمود الأرناؤوط، دمشق، ١٤٠٦ / ١٩٨٥

ابن كثير، البداية و النهاية، بيروت

ابن منظور، لسان العرب، بيروت

ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ٢٠٠٨

أحمد بن أبي جرادة، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر

أحمد عبد الرازق، الجيش المصري في العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٩٨

----------، الرنوك الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٠

----------، الفنون الإسلامية في العصرين الأيوبي و المملوكي، القاهرة، ٢٠٠١

----------، العمارة الإسلامية في مصر منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي، القاهرة، ٢٠٠٩

البصروي، تاريخ البصروي، تحقيق أكرم حسن العلبي، دمشق، ١٤٠٨ / ١٩٨٧

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، بيروت، ١٣٨٨ / ١٩٦٨

الجبرتي، عجائب الآثار، بيروت

الدمشقي، الدارس، تحقيق إبراهيم شمس الدين، بيروت، ١٤١٠ / ١٩٨٩

الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٨٤، ط٢

-------، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط و محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، ١٤١٣ / ١٩٩٢

الذهبي، من ذيول العبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت

السخاوي، الثغر الباسم في صناعة الكاتب و الكاتم، تحقيق أشرف محمد أنس و مراجعة حسين نصار، القاهرة، ١٤٣٠ / ٢٠٠٩

السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، بيروت، ١٤١٤ / ١٩٩٣

-------، الضوء اللامع في أهل القرن التاسع، بيروت

السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، ١٣٧١ / ١٩٥١

الشوكاني، البدر الطالع، بيروت

الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفي، بيروت، ١٤٢٠ / ٢٠٠٠

الصيرفي، إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧٠

-------، نزهة النفوس و الأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧٠

العليمي، الأنس الجليل، تحقيق عدنان يونس عبد المجيد نباتة، عمان، ١٤٢٠ / ١٩٩٩

العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٤٠٧ / ١٩٨٧

القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق عبد القادر زكار، دمشق، ١٩٨١

-------، مآثر الإنافة، تحقيق عبد الستار فراج، الكويت، ١٩٨٥

المقريزي، المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، طبعة بولاق، ١٢٧٠ / ١٨٥٣

ISSN: 1997-163X

Egyptian Journal of
Tourism and Hospitality

ـــــــــــ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، طبعة ١٩٣٤ ـ ١٩٧٢ و طبعة دار الكتب ١٤٣٠ / ٢٠٠٩

المكي، سمط النجوم العوالي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض، بيروت، ١٤١٩ / ١٩٩٨

اليافعي، مرآة الجنان، القاهرة، ١٤١٣ / ١٩٩٢

بدران، منادمة الأطلال، تحقيق زهير الشاويش، بيروت، ١٩٨٥

سعود العصفوري، وسائل التعذيب في العصر المملوكي، حوليات آداب عين شمس، المجلد ٣١، يناير – مارس ٢٠٠٣

سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر و الشام، القاهرة، ١٩٦٥

سعيد عاشور و آخرون، تاريخ مصر الإسلامية، سلسلة تاريخ المصريين، القاهرة، ١٩٩٣

عاصم رزق، معجم مصطلحات العمارة و الفنون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٠

عبد الرحمن الرافعي و سعيد عاشور، مصر في العصور الوسطي منذ الفتح العربي حتى الغزو العثماني، القاهرة، ٢٠٠٠

محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت، ١٩٨٤

مفضل ابن أبي الفضائل، النهج السديد المعروف بتاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشيه، باريس، ١٩١٩

ويستنفلد، جدول السنين الهجرية بلياليها و شهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها، ترجمة عبد المنعم ماجد و عبد المحسن رمضان، الأنجلو، القاهرة، ١٩٨٠

ثانيا : المراجع الأجنبية :

Abouseif (Doris), Islamic Architecture in Cairo, An Introduction, Cairo, 1998
Devonshire (Mme. RL), L'Egypte musulmane, Le Caire, 1982
Hautecoeur (Louis) et Wiet (Gaston), Les mosquées du Caire, Paris, 1931
Wiet (Gaston), Fêtes et jeux au Caire, Anlsl, VIII, Le Caire, 1969
Yusuf (Hiba), La passion des oiseaux et des animaux à l'époque musulmane, Annals of the Faculty of Art, Ain Shams University, Vol. 34, Oct - Déc 2006